مفهوم القيمة في لسانيات سوسير وامتداده في كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) لتمام حسان

د. كريم عبيد علوي
جامعة بغداد - كلية التربية للبنات

ملخص البحث

توزع هذا البحث في مبحثين اثنين , الأولُ منه اهتمَّ بمفهوم القيمة عند سوسير وأثره المنهجيّ في تصوراته اللسانية البنيوية من التفريق بين التزامن والتعاقب , وما تضطلعُ به القيمةُ من وظيفةِ الربطِ بين الأصوات والفكر , وارتكاز تصوره النظري على كون اللغة شكلاً لا مادةً على وفق هذا المبدأ , وأثر القيمة في البرهنة على أنَّ العنصر اللغوي يكتسبُ أهميتَهُ الوظيفية من العلاقات داخل نظام اللغة . وتوقف أيضاً عند الأثر المنهجيّ للقيمة في تحديد الوحدة اللغوية التحليلية وأثر القيمة في الدلالة من خلال مبدأ التقابل والعلاقات بين مفردات النظام ؛ معرجاً على مسألة الترادف اللغوي بوصفها أهم المصاديق التي يمكن أنْ تُعَالَجَ في ضوء مفهوم القيمة . أما المبحثُ الثاني فيعنى بمفهوم القيمة لدى تمام حسّان في كتابه (اللغة العربيّة معناها ومبناها) موضحاً تبلور المصطلح العربي المقابلِ للقيمة ومدى مطابقة مفهومه للأصل النظري السوسيري مبيناً سبقَ حسان في الاصطلاح و التلقي النظريّ لهذا المفهوم , ثم تناول المؤاخذات التي سجلها حسان على اللغويين العرب في تصوراتهم التراثية التعليلية بارتكازه على مفهوم القيمة . وتَعَقَّبَ البحثُ المنهجيةَ التحليليةَ الوصفيةَ لدى حسّان التي ارتكزت على مبدأ القيمة في التمييز بين مستويات النّظام من (صوت وصرف ونحو) كاشفاً عن المفارقة الكبيرة بين الأصل النظريّ السوسيريّ والبعدِ التطبيقيّ لدى حسان , ثم توقَّفَ عند قضية المعجم عند حسّان وعدمِ عدهِ نظاماً من أنظمة اللغةِ الفرعيةِ . ونقدَ البحثُ هذا التصور في ضَوء مفهومِ القيمة .

The Concept of Value in De Saussair Linguistics and their Extension in the Book (Arabic Language, Its Meaning and Structure) by Tammam Hassan

Dr. Kareem Ubeid Alawi
University of Baghdad - College of Education for Women

Abstract

This research was distributed into two sections, the first section was concerned with the concept of value for De Saussair and its methodological impact on his linguistic structural conceptions with respect of the distinction between synchronism and diachronism, the value role of linking function between the sounds and the though, the basing of his theoretical conception on the language being a form and not a material according to this principle and the value impact on the demonstration that the linguistic element acquires its functional importance from the relations inside the language system. It also stopped at the methodological impact of value on defining the analytical linguistic unit and the value role in semantics through the principle opposition and the relations among the systems vocabulary; addressing the issue of linguistic synonymy as the most important truth that can be treated within the view of the concept of value. As for the second section, it was concerned with the concept of value for Tammam Hassan in his book (Arabic Language, Its Meaning and Structure) explaining the crystallization of the Arabic term of value and the conformity extent of its concept to the theoretical origin of De Saussair showing the precedence of Hassan in terminology and the theoretical receipt of this concept, then the second section addressed the notes recorded by Hassan against the Arab linguists in their heritage explaining conceptions by his basing on the concept of value. The research followed the descriptive analytical methodology for Hassan which was based on the principle of value in distinguishing among the system levels (phonetics, morphology, syntax) revealing the great

variance between the Saussairian theoretical origin and the applied dimension for Hassan, then it stopped at the issue of lexicon for Hassan and not considering it a system of the language subsystems. The research criticized this conception within the light of the value concept .

مثلتْ لسانياتُ سوسير المنعطفَ الأبرز في تأريخ اللسانيات , فعلى يديه تحول البحث من النظر في تأريخ اللغة للنظر إلى اللغة من أجل اللغة ذاتها , وتبلورت في لسانياته مفاهيمُ النظام والبنية واشتهرَ في الأدبيات اللسانية تشبيهُ اللغةِ بلعبة الشطرنج ؛ لبيان أثر العلاقات داخل البنية في اكتناه سر نظام اللغة الذي لا يمكن سبر وظائفه إذا اكْتُفِيَ بالنظر إلى العنصر بمعزل عن النظام , واشتهرت ثنائياته (اللغة والكلام) و (التزامن والتعاقب) و(الدال والمدلول) , وكان لمفهوم القيمة في كل ذلك النظر حضورٌ منهجيّ مكين ارتكزَ عليه مبدأ التفريق بين تلك الثنائيات ومبدأ كون اللغة نظامًا ولا أثر للعنصر وحده من دون العودة إلى النظام بأكمله , فغلبَ مثالُ الشطرنج التوضيحيّ لمبدأ العلاقات داخل البنية مفهومَ القيمةِ في أغلب الأدبيات اللسانية , فهو أي مفهوم القيمة لا يكاد يُذْكَرُ وإنْ ذُكِرَ فبنحو تبسيطيّ يجهزُ على أثره المنهجيّ في بلورة تلك الثنائيّات وكون اللغة نظاماً وكونها شكلاً لا مادة وغير ذلك من قضايا منهجية خطيرة [١] , وما مثال اللعبة إلا مثال توضيحي لا يرتقي إلى مفهوم القيمة واتساعه الإجرائي الذي يشملُ جُلَّ المبادئ التي أتى بها سوسير , ليس على الصعيد الشكلي حسب بل في معالجة وحدة اللغة والفكر فضلاً عن أنَّ مثال الشطرنج هو مصداق إشاريّ بنيويّ لمفهوم القيمة ولم يأتِ به سوسير - في نظر البحث - إلا لسهوله إدراك مبدأ القيمة فيه وبساطته موازنة بقيم اللغة وكثرتها وصعوبتها , وبسبب من ذلك فإنَّ البحث يسعى - في مبحثه الأول- إلى الكشف عن الأثر المنهجيّ لمفهوم القيمة في لسانيات سوسير والأبعاد الإجرائية للقيمة التي تحققَ بوساطتها من المبادئ المنهجية التزامنية .

وقد عني البحث - في مبحثه الثاني - بتعقب امتداد مفهوم (القيمة) عند تمام حسَّان لما تمثله دراساته الوصفية من محاولات رائدة استوعبت أنظمة اللغة العربية بالوصف - لا سيما كتاب اللغة العربية معناها ومبناها - منطلقاً بذلك من مبادئ بنيوية سوسيرية ووظيفية , وكان من أبرز تلك المبادئ البنيوية مفهوم (القيمة) فقد تواتر عند حسان بنحو ملحوظ ومنه أفادت وتأثرت دراساتٌ عربيةٌ لسانيةٌ وصفيةٌ لاحقة , وبسبب من ذلك فقد أهتم هذا البحث بالكشف عن آلية التوظيف المنهجيّ لمفهوم القيمة لدى حسّان في التمييز بين أنظمة اللغة العربية وأثره في التحليل اللغوي موازناً إياه في مقاربة تقويمية بالأصل النظري السوسيري .

المبحث الأول :

القيمة والتزامن والتعاقب

ما كان لسوسير أنْ يتوافرَ على تقسيمه الثنائي (التزامني التعاقبي) في دراسته للغة لولا إمساكه بمفهوم القيمة بوصفه بعداً برهن من خلاله على أثر التغيير النسقيّ الذي يتجاوز تغييرَ صورة العنصر إلى التغيير الذي يمسُّ جوهرَ نظام اللغة ليطال علاقةَ العناصر بعضها بالبعض الآخر . إنَّ مفهوم الزمن يمثلُ مرتكزاً حيوياً لتفسير تزعزع ثبات العلاقة العرفية بين الدال والمدلول المستندة على مبدأ الاصطلاح الاجتماعي , ففقدان التعليل بين عنصري العلامة اللسانية يخضعُ العلاقةَ بينهما لسلطة الاستعمال التي تقوم اللغةُ عليها في ثبات أنظمتها , ولكن إدخال الزمن طرفاً ثالثاً بين اللغة والمجتمع هو الذي زعزع ذلك الثبات [٢] .

ويؤكد سوسير أنَّ كثيراً من العلوم كعلم طبقات الأرض والجيلولوجيا وعلم الفلك تدرك ما للزمن من تأثير فيما تدرس , فالأرض وطبقاتها تتأثر في حقبة زمنية و النجوم لا تبقى على حالها , فهي بمرور الزمن تتغير بنحو ملموس , ولكن هذا التغير لم يضطر هذه العلوم إلى التمييز المنهجيّ في البحث بين ما هو تزامني أو ما هو تعاقبي ؛ بسبب أن الزمن لا يؤثر في طبيعة منهجية الدراسة , وقد استثنى سوسير من ذلك علمي الاقتصاد واللغة مؤكداً أنَّ المعالجة الاقتصادية السياسية تختلف عن المعالجة الاقتصادية التأريخية , فالحقلان متمايزان في الدراسة والمنهج [٣] .

ويبدو بنحو واضح تأثر سوسير بعلم الاقتصاد في التمييز بين النظر التعاقبيّ والتزامنيّ إذ مفهوم القيمة هو مفهوم اقتصادي شائع , فالاقتصاد واللغة في نظر سوسير يهتمان بنظام يعادل بين أشياء من أصناف متباينة نحو العمل والأجور في الاقتصاد والدال والمدلول في اللغة . ولم يكتف سوسير بالتدليل على مواطن الاتفاق المنهجيّ بين العلمين بل أشار بنقد

---

[١] من المصادر اللسانية العربية - على سبيل المثال - التي لم تول القيمة أهمية أولم تأت على ذكرها حينما توقفت عند أهم مبادئ سوسيرالنظرية : مدخل إلى علم اللغة . محمد حسن عزيز ٢٩٨ وما بعدها و ينظر أيضاً : الألسنية (علم اللغة الحديث) قراءات تمهيدية. ميشال زكريا ٢٣٧ فما بعدها . وينظر أيضاً : محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة . شفيقة العلويّ ٩ فما بعدها . وينظر : معجم أعلام الألسنية (في الغرب) هيام كريدية ٤٠٢ فما بعدها .

[٢] ينظر : علم اللغة العام . فرديناند دي سوسير ٩٦ .

[٣] ينظر المصدر نفسه ٩٨.

إبستمولوجي مقتضب لما وراء المنهج الاقتصادي إلى أنَّ الاقتصاديين انطلقوا بذلك التقسيم من ضرورة داخلية من غير أنْ يفطنوا إلى ذلك[٤] .

وثمة تمييز تتضح فيه هذه الثنائية يتخذ صيغةَ احداثيتين بيانيتين على صورة خط أو محور أفقي يجسدُ العلاقات بين الأشياء المتزامنة التي جُرِّدَ عنها الزمنُ , وخط عمودي يقطع ذلكَ الخطَ الأفقي بنقطة واحدة يُدْرَسُ فيه شيءٌ واحدٌ في لحظة واحدة مع الأخذ بالنظر تلك التغيرات الزمنية الطارئة عليه . لقد كانت الضرورة إلى هذا التصور الثنائي عند سوسير تعود لسببين أحدهما ضرورة عملية تُكْسِبُ العلومَ كفاءةً منهجيةً وضبطاً دقيقاً لمفاهيمها , أما الضرورة الأخرى فهي ضرورة مطلقة في علوم لا يمكن تنظيم البحوث فيها إلا إذا ارتكزت على هذين المحورين ليؤكد أنَّ على اللغوي أنْ يهتم به أكثر من سواه . بسبب أنَّ اللغة نظام من القيم التي لا تهتم إلا بترتيب عناصرها في لحظة محددة [٥].

وقد تبدو الأحكام المبنية على القيم الاقتصادية مثلا معللة وغير اعتباطية , فقيمة أرض ما تعتمد على خصوبتها وعلى هدى من ذلك يستطيع الباحث أنْ يقفو أثرها عبر الزمن خصوصاً أنها ترتكز في كل مدة من الزمن على نظام متزامن من القيم . إنَّ ما يريد تأكيده سوسير هو صعوبة دراسة نظام القيم موازنة بغيرها من المناهج العلمية الأخرى التي تُعْنَى بالقيمة كالاقتصاد , ولا يقتصرُ السببُ في ذلك على القيم اللغوية غيرِ المعللة كما في الاقتصاد بل اللغة لا يضاهيها أحدٌ من الأنظمة من ناحية تعقيد القيم ودقتها وكثرة عدد عناصرها وتنوعها واعتماد هذه العناصر بعضها على البعض الآخر.[٦]

فعلى هدى القيم اللغوية فالتغيرات الطارئة على اللغة نوعان:

١- تغيرات تطال عنصراً من عناصر اللغة ولا تؤثر بعلاقة العنصر ببقية العناصر.
٢- تغيرٌ يطال علاقةَ العنصرِ ببقية العناصر مما يؤثر في ترتيب علاقات عناصر النظام بنحو عام , فمن الصعب أنْ يتغير النظام دفعة واحدة أو بنحو مباشر , فتعقيد القيم المكونة للنظام يجعله غير قابل للتغيير بنحو مباشر .إنَّ حركة التغيير هذه لا تصدر عن إرادة تهدف إلى تطويع اللغة وعناصرها بما يلبي كفاءة إيصالية في التعبير , فالتغيير يحدث عفواً ويؤثر شيئاً فشيئاً في النظام [٧].

إنَّ هذا التصور حتمَّ على سوسير التفريقَ بين المفهوم التعاقبيّ والمفهوم التزامنيّ , فالتغييرات التي يحدثها التعاقبُ ليست ذات تأثير في النظام أما رصد وظيفة عنصر ما داخل النظام في التصور التزامني فيفضي إلى استكناه علاقته ببقية العناصر المنبثقة من مفهوم القيمة التي يحدثها التقابل في برهة محددة من الزمن الأمر الذي يحتمُ التمييزَ ويسوغه بين هذين التصورين أي التزامنيّ والتعاقبيّ .

ولتوضيح قيمة العلاقات بعضها في البعض الآخر تزامنياً و ما ينتجه التقابل من قيم وأثرها الوظيفي التزامني لجأ سوسير إلى مقاربة هذا التصور بذهن المتكلم , فالمتكلم في تصوره لا يتمثل تلك التغيرات التعاقبية فلا وجود لهذه الحقائق عنده , فالمتكلم يستحضر نظاماً ما يتواصل من خلاله , فعلى اللغوي الذي يريد أنْ يصل إلى عقل المتكلم كاشفاً ذلك النظام أنْ ينبذ جميعَ الأمور التي أدت إلى نظام تلك اللغة الذي استقر في عقله , فما عليه إلا أنْ ينبذ الماضي ويهتم بما هو آنيّ ولحظيّ تماماً كما هو حال الرسام التشكيليّ الذي يريد أنْ يرسم منظراً لجبال الألب , فعليه أنْ يختار قمة واحدة فيرسمه لا قمماً كثيرة يطلُّ منها عليه[٨].

ويرى البحثُ أنَّ التغيير الذي حصل بالحركات الإعرابية يمكن عده مثالاً على تغيير العنصر الذي لا يطال النظامَ في بعض مراحله ؛ لاحتفاظ اللغة بقيمها اللغوية على الرغم من طروئه , و لكنه بعد حين امتدَّ أثره في قيم اللغة وفي التقابل بين الوحدات النحوية , فالتغيير في بواكير اللحن قد يطال عنصراً أو اثنين ولا يمتد إلى النظام اللغويّ للعربيّة بنحو شامل , والدليل على ذلك أنَّ اللحن أثار حساسية لدى العربي المحتفظ بسليقته , فالنظام مستكن في ذهنه وهو يفطن إلى الخرق الحاصل فيه , فالتغيير في مراحله الأولى لم يؤثر في نظام الرتبة العربية وتوزيع الوحدات فقد بقين يحتفظن بتوزيعهن في الجملة ويحتفظن بقابلية التحويل من تقديم وتأخير, ولكن بمرور الوقت وبحقب تعاقبية على اللغة العربية باستعمالها الدارج غير الفصيح أي الاستعمال العامي للهجات العربيّة المعاصرة ومنها اللهجة العراقية أثرَّ ذلك في العربية الدارجة بنظام رتبها ؛ ففقدان العلامات الإعرابية جعل العربية الدارجة تلتزم ترتيباً معيناً ولا يبيح لها التقديمَ , فالرتبُ بها رتبٌ محفوظةٌ . وبمقاربة تشبيهية أكثر بياناً لداخل النظام لجأ سوسير إلى لعبة الشطرنج مقارباً إياها باللغة , فقيمة قطع اللعب في الشطرنج تعتمد موقعها في اللعبة مثلما أنَّ كل عنصر من عناصر اللغة يستمد قيمته من تقابله مع بقية العناصر.

إنَّ نظام اللعبة يرتكز دائماً على لحظة زمنية معينة , فنقلة جديدة لقطعة ما تؤثر بعلاقة العناصر بعضها ببعض داخل لوحة اللعبة ومن شأنها أنْ تخلق وضعاً جديداً يختلف عن الوضع السابق . وحينما يراقب المرء وضعاً ما في اللعبة فلا أهمية لديه أنْ يعرف سلسلة الحركات التي أفضت إلى ذلك الوضع , فالذي يتابع اللعبة من أولها ليس في حالة أفضل من الزائر الذي يأتي في لحظة ما ويلقي النظر على حال اللعبة في تلك اللحظة , فوصف ترتيب اللعبة في تلك اللحظة يستغني عن وصف الحالة السابقة التي كانت عليها , فلا طائل من ذكر تلك التغييرات , فالنظام اللغوي يعمل ضمن حالة معينة ولا أهمية لتلك

---

[٤] ينظر المصدر نفسه ٩٨.
[٥] ينظر المصدر نفسه ٩٩
[٦] ينظر المصدر نفسه ٩٩
[٧] ينظر المصدر نفسه ١٠٥
[٨] ينظر المصدر نفسه ١٠٠

التغييرات في رصد عمل عناصر النظام بقدر ما لمفهوم القيمة التي يتبلور في إطار المنهج التزامنيّ [٩] . و يؤكد سوسير الفارقَ بين مقاربة اللغة بلعبة الشطرنج , ففي الأخيرة تكون تلك التغيرات قصدية أما التغييرات اللغوية فهي عفوية , فمع قصدية تلك التغييرات في اللعبة يبقى النظرُ لها في برهنة ما في رصد علاقات قطعها لا يرتكز على ملاحظة التغيرات فيها عن قصد , الأمر الذي يؤكد أثرَ النظرِ التزامنيّ في استجلاء علاقة العناصر ببعضها الآخر ارتكازاً على مبدأ القيمة [١٠].

القيمة ومطابقة الوحدات للكيانات اللغوية الواقعيّة

إنَّ من أهم المبادئ التي انشغل سوسير بالتقنين لها هو مفهوم الوحدة اللغوية , فما من علم من العلوم إلا وترتكز الأبعاد الإجرائية له على فحص وحدات محددة تمثل موضوعاً لذلك العلم ؛ كالنجوم لعلم الفلك والعناصر لعلم الكيمياء [١١] , إنَّ موضوع الوحدات وإنْ كان ملمحاً بارزاً من تقسيم الكلم إلى أصناف نحوية وصوتية وصرفية ودلالية غير أن البحث اللساني يدين لسوسير بانشغاله بإرساء أهم المرتكزات التي يمكن بوساطتها وضع حدود فاصلة بين هذه الوحدات وتمييز بعضها عن الآخر , كمفهوم الخطية الذي تتعاقب فيه الوحدات , وآلية الارتباط بين الدالّ والمدلولّ وصعوبة تحديد الوحدات اللغوية لعدم انعزال هذه الوحدات بعضها عن بعض في السلسلة الكلامية , فلا يمكن رؤية هذه الوحدات وتمييزها في الأداء , واللغة نظام يعتمد كلياً على التقابل بين وحداته مثلما تعتمد لعبة الشطرنج على الارتباط بين قطعها المختلفة [١٢] .

ويظهر ما لمفهوم القيمة من أثر في تصور سوسير عن الوحدات اللغوية في أنه استطاع من خلالها أنْ يجيب عن تساؤله عن مدى مطابقة هذه الوحدات للكيانات الواقية الملموسة للغة , فهل الوحدات اللغوية أمر افتراضيٌّ يسهل دراسة اللغة بنحو ما هي عليه خطوط الطول والعرض التي تقسم الكرة الأرضية وتسهل دراسة المناخ وتقسم الأرض إلى مدارات ؟ إنَّ ما ينتهي إليه سوسير هو واقعية التطابق بين اللغة ووحدات دراستها المرتكز على ثبات العناصر وظيفياً لا على ثبات المادة اللغوية الصوتية والبواعث النفسية لوحدات الكلام , فمثلاً العبارة اللغوية (أيُّها السادة) يمكن النطقُ بها في محفل واحد مرات عدة أو بأكثر من محفل واحد , فعلى الرغم من تجدد المادة الصوتية وعدم ثباتها في إنشاء هذه العبارة واختلاف الدوافع النفسية في كل مرة إلا أنها تعد جملة واحدة , فاللغة هي شكل وليست مادة , فالمادة متجددة ومتغيرة أما الشكل فهو يعني ثبات العلاقات بين العناصر تزامنياً على الرغم من اختلاف الوقائع مما يحقق تلك المطابقة بين كيانات اللغة ووحدات الدراسة التزامنية[١٣].

وبعد حين تزعزع مفهوم وحدة الجملة ومطابقتها للوقائع اللغوية على يد التداولية لدواع تتصل باختلاف المقاصد , فمفهوم الجملة يعدُّ في النظر التداولي أكثر تجريداً , فالتداولية تفرق بين الجملة Sentence وبين القول Enonce , فالقول يحدد هوية الشخص القائل ويحدد زمن التلفظ , فموضوع الخطاب هو القول لا الجملة المجردة , فالقول (أنا مسافر) الذي ينطق به زيد في الخامس من ذي الحجة ظهراً يختلف عن (أنا مسافر) الذي ينطق به عمرو في الخامس من رمضان في الساعة الثانية [١٤].

والجملة هي أكبر وحدة نحوية موصوفة أما تجلياتها النطقية , فهي (قول) فالشكل المجرد المستوفي كل مكوناتها البنيوية التي تنص عليه مقررات علم النحو سوف يفقد في الأداء بعض تلك المكونات , وقد تبدو جملة الأداء (القول) على ضوء التحليل الصوري غير مقبولة نحوياً , لكن العود بها ضمن سياق معين سوف يعطيها مقبولية دلالية . ولا تشف الدلالة البنيوية للجملة عن قصدية المتكلم ما لم يتم العود بها ضمن إطار حدث لغوي واقعي لا افتراضي صوري مجرد , فجملة واحدة بمكونات واحدة ترد في سياقات مختلفة تختلف معانيها تبعاً لاختلاف المقاصد , فالإخبار قد ينقلب إلى تهكم وسخرية أو يتضمن فعلاً إنجازياً طلبياً , فكل هذه المبادئ تطوح بالمسلمة البنيوية التي مفادها أنَّ الجملة أكبر وحدة تحليلية ليستعاظ عناها ــ تداولياً ــ بـ (القول) [١٥]. ولا تنتهي ثنائية الوحدات بين النسق والأداء عند تخوم الجملة فحسب , فثمة تمييز بين الدلالة البنيوية والمعاني الاستعمالية في ثنائية (التعيين , والإحالة) , مثلما فرق علماء الأصوات من البنيويين بين الفونيم بوصفه وحدة مجردة وبين تنوعاته الأدائية في الكلام (الألفونات) .

وعلى الرغم من ذلك يظل مفهوم القيمة بعداً إجرائياً يتصف بالحصافة العلمية في التمييز بين الوحدات ومن دون هذا التمييز لن يتم تمييز النظام الذي هو مقولة جوهرية لا تستعيض عنه التيارات والنظريات اللسانية قاطبة .

فـ (ما) ترد حرف نفي في العربية وترد اسماً موصولاً وترد اسم استفهام وترد اسماً موغلاً في الإبهام في أسلوب التعجب وترد حرفاً زائداً يفيد التوكيد , ومادتها الصوتية في كل ذلك واحدة مؤلفة من الصوت الشفوي(الميم) والألف اللينة , ولكن معانيها النحوية مختلفة ؛ بسبب اختلاف قيمها النحوية لاختلاف الترتيب وائتلافها في كل مرة مع عناصر مغايرة , مما يؤكد أنّ اللغة شكل لا مادة , فأساس التفريق هي القيم الناشئة من العلاقات , فهي الفيصل بين وحدات مختلفة ذات مادة

---

[٩] ينظر المصدر نفسه ١٠٦-١٠٧

[١٠] ينظر : علم اللغة العام . سوسير ١٠٧ وينظر : مدخل للسانيات سوسير . مبارك حنون ٥٩-٦٠.

[١١] ينظر المصدر السابق ١٢٦

[١٢] ينظر المصدر نفسه ١٢٣

[١٣] ينظر المصدر نفسه ١٢٧

١٤ ينظر: الألسنية . الفروع والمبادئ والمصطلحات . هيام كريدية ١٨٤

[١٥] ينظر: المدخل إلى علم اللغة . كارل ديتر بونتج . ١٧٢- ١٧٤و ينظر: المصدر السابق ١٨٤ .

صوتية واحدة , ونحو ذلك المشترك اللفظي فألفاظه ذات مادة صوتية واحدة ولكن سبب اختلاف مدلولاتها مرده دخولها في علاقات ائتلافية سياقية تختلف بين مفردة وأخرى , وهذا الاختلاف يفضي إلى معنى تعييني محدد .
وللبرهنة على أنَّ تغيُّرَ المادةِ لا يؤثر على مبدأ التطابق بين الوحدات والكيانات اللغوية الواقعية لجأ سوسير إلى مثال القطار المنطلق من محطَّة واحدة بعربات مختلفة في أوقات مختلفة . فهو يؤكدُ التطابقَ بين قطارين مغادرين من جنيف إلى باريس في الساعة الثامنة وخمس وعشرين دقيقة مساء , وتفصلُ بين كل قطار وآخر أربعُ وعشرون ساعة , فعلى الرغم من اختلاف العربات بقطعها المادية والفارق الزمني بينهما لكنه قطار واحد تماماً مثلما إذا هُدِمَ شارعٌ وأُعِيْدَ بنائهُ مرة أخرى فهو الشارع نفسه , فهو لا يستمدُ كيانَهُ من تلك الأجزاء المادية [١٦] بل من موقعه بين تلك الشوارع المجاورة .[١٧]
ولعلَّ فكرة التشبيه تتوضح أكثر عند سوسير في لعبة الشطرنج المرتكزة على مفهوم القيمة , فالحصان الذي هو أحد أجزاء لعبة الشطرنج ليس بهيأته المادية عنصراً في اللعبة , فإذا فُقِدَتِ القطعةُ وكُسِرَتْ في أثناء اللعب لا يشترط أنْ تكون القطعة البديلة تشبه الحصان , فيمكن الاستعاضة عنها بأي قطعة , فالمهم أنْ تكون لها قيمة القطعة الأولى في الحركة , ففكرة التطابق ترتكز على القيمة , فمفهوم القيمة يضمُّ مفهومَ الوحدةِ والكيانات اللغوية الملموسة والحقيقة الواقعية لها في الاستعمال [١٨] .
وينفي سوسير أنَّ الصوتَ عنصرٌ مادي , فقيمته تعود لاختلافه وتقابله مع الأصوات الأخرى مشيراً إلى أنَّ هذا المبدأ يشمل كل القيم الاجتماعية لمختلف الأنظمة الإشارية اللغوية وغير اللغوية , فهو ما فتئ يبشر بالسيمياء ذلك العلم الذي يهتم بدراسة أنظمة العلامات الاجتماعية والذي سوف يكون علماً شاملاً لكل هذه الأنظمة فتنضوي تحته اللسانيات , فالقيمة في جانب من جوانب مفهومها هي تصور متقدم لفكرة الوضع اللغوي البسيطة فمنشأ القيم هو المجتمع , فقيمة العملة المعدنية لا تعود إلى المادة المعدنية التي تُسَكُّ منها , فالقطعة التي تساوي خمسة فرنكات قد تحتوي من معدن الفضة أقل من نصف قيمتها التبادلية الشرائية التي يوضحها الرقمُ المكتوبُ عليها ضمن الحدود السياسية التي تتداول هذه العملة , ويصدق هذا الأمر بدرجة كبيرة على الدالّ اللغويّ فهو لا يتكون من مادة صوتية بل من الفروق التي تميزه عن غيره من الدوال صوتياً , فالفونيمات داخل نظام اللغة كياناتها ذات تقابلات سلبية ولا تعود قيمتها لمادتها ، فَصَوْتُ r في الفرنسيّة ـ في تمثيل سوسير ـ في استعمالها العام صوتٌ مخرجه من ظهر اللسان وهذا الأمر لا يمنع بعض المتحدثين من النطق به بنحو رفيع في نهاية اللسان [١٩] . ويمكن للبحث أنْ يدلل بمثال من العربية على أنَّ بعض التغيير الصوتي يبقي قيمةَ الصوتِ كما هي ما لم يتقاطع هذا التغيير مع التقابلات التي تنشئ الاختلافَ القيميّ السلبيّ بين الأصوات , فهمسُ صوتِ الباءِ المجهور في كلمة (بَاب) مثلاً لا يغيرُ من قيمة الصوت , فدلالةُ الكلمة تبقى هي هي فليس من نظير مهموس للباء المجهور في العربية

---

[١٦] ونحو ذلك جسر الصرافيّة الواقع على نهر دجلة ببغداد والرابط بين جانبي الكرخ والرصافة , فقد شُيِّد في خمسينيات القرن الماضي , وأعيد بنائه بعد تفجيره بحادث إرهابي قبل بضع سنين وبطراز حديديّ جديد مغاير للسابق , فهو من حيث الشكل جسر واحد , إذ يضطلع بوظيفة الربط بين جانبي بغداد الرصافة والكرخ , فموقعه هو هو ولم يتغير , فالذي تغير مادته الإنشائية , فالجسر على ضوء المنهج البنيوي بقي جسراً واحداً , أما المناطق والشواخص الأثرية فقيمتها بمادتها لا بشكلها , فموقعها لا يمثل موقعاً وظيفياً ببنية المكان المعاصر , فترميمها يفقدها قيمتها التاريخية بنحو ما حصل مع آثار بابل في تسعينيات القرن الماضي , فقد قررت منظمة اليونسكو إخراجها من لائحة الآثار العالمية .

إنَّ العملة النقدية قيمتها بشكلها لا بمادتها الورقية أو المعدنية أي بقدرتها التبادلية الشرائية التي تعرف بموازنتها بفئات مختلفة ضمن النظام النقدي الواحد , و قد يُصَارُ إلى تغيير العملةِ تحت طائلة تغيير الأنظمة بنحو ما يحصل في بلدان العالم الثالث ذات الأنظمة الشمولية التي تكتسب فيها سيمائية النقد رموزاً وصوراً تعكس أيدلوجية الحكم أو صور الملوك والرؤساء , مما يضطرُّ الأنظمة الجديدة المتحولة من أنظمة ملكية إلى جمهوريات ,أو من جمهوريات استبدادية إلى جمهورية ديمقراطية إلى تغيير العملة . وهذا التغيير الذي يطال المادة الورقية أو المعدنية المستهدف تغيير رموز الحقبة الماضية هو مثال يؤكد أنَّ النظام النقديّ وفئاته شكلٌ لا مادة بدليل أنَّ المادة قد تتغير ولا تتغير القيمةُ الاستبدالية للعملة , و العملةُ القديمةُ غير المتداولة نحو العملة الملكية العراقية التي يقتنيها هواة جمع العملات تكتسب أهميتها بمادتها لا بشكلها عكس العملة المتداولة اقتصادياً تماما مثلما هو حال الشواخص الأثرية التراثية التي قيمتها بمادتها , عكس الشوارع والجسور والمدن ذات الاستخدام الوظيفيّ التي قيمتها بشكلها أي بموقعها , والأمر نفسه يَصْدُقُ على مفردات اللغة المهجورة الاستعمال التي يضمها المعجم التاريخيّ للغة , فلا أهمية بنيوية لها في اللغة المتطورة بل لها أهمية فيلولوجية , فالفيلولوجيا تنطلق من دراسة ألفاظ اللغة ونصوصها للتعرف على المحتوى الثقافيّ التأريخيّ والحضاريّ للأمم الناطقة بتلك اللغة فتتحول اللغةُ وألفاظُها وسيلةً إلى ذلك , ومثالُ ذلك الكثير من ألفاظ الأزياء والحاجات المنزلية والعقاقير الطبية في العصور العباسية وفي الحقب البائدة فاللفظ يمثل وثيقة للتعرف على الماضي ومدى تطوره من خلال اللفظ الذي كان يُسْتَعْمَلُ فيه .

[١٧] ينظر : علم اللغة العام . سوسير ١٢٨ وينظر : فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات) جوناثان كلر ٨٢

[١٨] ينظر المصدر السابق ١٢٩

[١٩] ينظر: المصدر نفسه ١٣٧-١٣٨

بنحو ماهي عليه اللغة الإنكليزية , فثمة تقابل فيها بين صوت b المجهور وصوت p المهموس , صحيحٌ قد يبدو همسُ الباء - وإنْ لم يخلقْ لبساً دلالياً - أمراً غيرَ مستحسن ولا تستسيغه أذنُ السامع في العربية , ولكن هذا الأمر يَصُبُّ في استقلالية اللغة عن الكلام في تمييز سوسير, فاللغة وحدها متجانسة ومتماسكة عكس الكلام مما يجعلها موضوعاً واضحاً ومحدداً ومنطلقاً للبحث اللسانيّ بخلق وحدات وصور مجردة , فتحديد موضوع الدرس اللسانيّ حقق للسانيات علميتها باستقلالها وعدم تأثرها بمناهج العلوم الأخرى , فالتمييز بين اللغة والكلام يرتكز أيضاً عند سوسير على مبدأ القيمة وإنْ كان التسلسل المنهجي للقيمة هو متأخر في محاضراته عن تفريقه بين اللغة والكلام , فقد تَقَدَمَهَاْ هذا التمييز الأخير بفصول عدة . ولعلَّ خيرَ مثالٍ يضربه سوسير مسوغاً هذا التمييز هو مثال السمفونيّة بوصفها (نوتات)ورموزاً نغميّة مستقلّة , فقد يحدث إرباكٌ أو خطأ في أداء العازفين , ولكن ذلك لا يمسُّ جوهرَ السمفونية بوصفها كياناً مستقلاً يمكن أنْ يُؤدَى مراراً . ويمثل سوسير بمثال الشفرة ونظام الإرسال الرمزيّ والأسلاك والأجهزة التي تنقلُ مختلفَ الشفرات والبرقيات إذ يمكن دراسة نظام التشفير بمعزل عن أجهزة الإرسال وحيثيات المرسِل [٢٠] . ويتوقف سوسير عند الكتابة ويعدُّهَا نظاماً من الأنظمة الإشارية التي تخضع لمبدأ القيم , فالحروف الكتابية اعتباطية فلا توجد من صلة حتمية بين الحرف والصوت الذي يدلُّ عليه سوى ما يمليه العرفُ الكتابيّ , فقيمةُ الحرفِ سلبيةٌ فيمكن أنْ يُكْتَبَ الحرفُ بطريقة مغايرة ولكن بشرط عدم اختلاطه بأحرف مشابهة , فالقيمُ في الأحرف قيمٌ تتكئ في عملها على التقابل بين الأحرف الكتابية . ويؤكد أيضاً أنْ لا أهمية تُذْكَر لوسيلة الكتابة فهي لا تؤثر في النظام , فدلالة الحرف وقيمته واحدة مهما اختلفَ لونُ المدادِ إنْ كُتِبَ باللون الأحمر أو الأسود أو الأبيض أو بحروف بارزة مكتوبة بالقلم أم محفورة بالإزميل [٢١] . ويمكن للبحث يفرِّع على أمثلة سوسير أنَّ الخط العربي يمكن أنْ يُرْسَمَ بخطوط مختلفة نحو(الكوفيّ , والثلث , والديوانيّ , والنسخ , والرقعة ...) وتبقي القيم التقابلية للحرف واحدةً , فقيمة الحرف ليست بمادته الحسية المتجسدة في الأداء الكتابي , فالأبعاد والكيفيات الهندسية للحرف تشبه التنوعات الصوتية (الألفونات) للوحدة الصوتية المجردة (الفونيم) فقد تُكْتَبُ الكلمةُ وكل حرف بها من خط مغاير(كوفي أو نسخ ..)مما يفقدها جماليةَ تناسق الحرف والتناسبَ الهندسيّ بها ولكن قيم الأحرف تبقى واحدةً .

وينتقد ميشال أريفيه مقولة سوسير المتمحورة على كون القيم تنشأ من الاختلاف منكراً إياها معولاً في ذلك على فكرة التواصل , فالقيم السلبية سوف تحول من دون الاتصال ولا تجعله ممكناً في وقت أقره أي الاتصال سوسير - والتأكيد لأريفيه - بوضوح , فهذه السلبية تؤثر في طبيعة العلامات التي ينطلق منها المتحدث التي لا تتوافق مع طبيعة العلامات لدى المخاطب , فكيف ينعقد الحوار بينها في إطار تلك القيم السلبية المختلفة ؟ [٢٢]

والحق أنَّ السلبية لا تمس جوهر التواصل بل هي تعززه , نعم لو أفضى ذلك إلى اختلاف النظامين بين المخاطب والمتحدث فلا شك أنَّ التواصل سوف يكون متعذراً , فالاتصال ينطلق من مبدأ الاشتراك بالنظام بين الاثنين . وهذه المسلمة الأخيرة لا تصلح في انتقاد مبدأ القيمة السوسيري , فالقيمة السلبية أساس النظام وعلى هديها تنشأ العلامات وتدخل في علاقات بالارتكاز على التعارض والاختلاف , فهي التي تمنح النظام السعة الإبلاغية الإخبارية , فالتمييز والتخصيص لوظيفة إبلاغية تضطلع بها إشارة ما يقتضي الاختلاف , ويمكن رصد ذلك في الأنظمة ذات القيم البسيطة نحو إشارات المرور , فقيمة اللون الأحمر تستمد وجودها من اختلافها وتعارضها مع اللونين (الأصفر و الأخضر) , والأمر لا يتعلق بالطبيعة الموجية للون إذ يمكن الاستعاضة عنه بأي لون آخر بشرط الاحتفاظ بمبدأ الاختلاف بين بقية الألوان الموجودة ضمن النظام نفسه , فتلك السلبية تحقق كينونة النظام وهذه الكينونة بقسريتها العرفية تجعل التواصل ممكناً . وفي اللغة تتعارض العلامات فيما بينها فتتولد , ويتعارض توزيعها ويختلف ضمن المحور النظمي في علاقات مختلفة كي تضطلع بالوظيفة الإخبارية التي تخصص كل فكرة بمجموعة منتظمة من العلاقات ضمن ذلك المحور , فالقيم والتعارض السلبي بينها هو سر نجاح اللغة وتفوقها في الإبلاغ وسعته على بقية الأنظمة لتعقد تلك القيم اللغوية وكثرتها , وهي سبب صعوبتها أيضاً .

القيمة اللغوية والفكر

لقد نفذ سوسير إلى جدلية اللغة والفكر لا لأهداف فلسفية تحدوه إلى ذلك بل للبرهنة على أنَّ اللغة نظام من القيم , ولكنه على الرغم من ذلك أرسى فلسفةً لغويةً مثلت تحولاً جذرياً عن مبادئ ثابتة منذ العهود اليونانية التي ترى أسبقية الفكر وكون اللغة انعكاساً له [٢٣] , فنظامُ القيمِ ينشأ من الربط بين الصور السمعيّة الصوتيّة وقطع متمايزة من الفكر , فالتفكير من الناحية النفسيَة في تصور سوسير إذا كان غفلاً من الكلمات فهو كتلة غيرُ متمايزةٍ ولا شكلَ لها , فاللغة بعلاماتها هي الوسيلة للتمييز بين الأفكار , فلا وجود سابق للأفكار قبل ظهور اللغة حتى الصوت لا يعتدُّ به سوسير كثيراً فليس العبرة لديه في المادة الملموسة [٢٤] . ولم يكتف سوسير بإرسائه المبادئ الثلاثة للعلامة اللسانية التي هي الاعتباطيّة والخطيّة ومبدأ التداعي النفسيّ بل حاولَ أنْ يعضدَ هذا المبدأ الأخير مبرهناً على أثره الوظيفيَ في مجمل النظام لا على البعد الأحادي المنفرد للعلامة , فالتداعي بين الدالّ والمدلول هي الآصرة النفسية التي لا يمكن أنْ تنفك بين الصور السمعية الصوتية والفكرة في

---

[٢٠] ينظر: المصدر نفسه ٣٧.

[٢١] ينظر: المصدر نفسه ١٣٨. وينظر : مدخل للسانيات سوسير . مبارك حنون ٩٠.

[٢٢] ينظر: البحث عن فردينان دو سوسير . ميشال أريفيه ١١٨.

[٢٣] ينظر : النظرية اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية . ماري آن بابو وجورج إلياسرفاني١١٧

[٢٤] ينظر : علم اللغة العام سوسير ١٣١

العلامة , فكل زعم يناهض هذا التصور يقسم العلامةَ إلى صوت منفرد وفكرةٍ منفردةٍ , و يجعلُ الأفكارَ معدةً سلفاً قبل اللغة ويجعل من الثانية سجلاً لفظياً لهذه الأفكار, ويجعل من عملية الربط بين الدال والمدلول أمراً يسيراً , وإلى جنب ذلك يجعل اللغات على اختلافها تعبِّرُ عن معان واحدة فيما لو أُفْتُرِضَ أسبقيةُ المعنى والفكر[٢٥].

إنَّ وظيفة اللغة لا تكمن في تهيئة الوسيلة الصوتية للتعبير عن الأفكار بل تجزئة هذه الأفكار بوحدات متمايزة ليوازيها تجزئة لمادة صوتية تتخذ وحدات متمايزة بهذا التقسيم , لتضطلع اللغةُ من ثم بالوصل بين الأفكار والأصوات , فاللغة تُعَبِّرُ عنها وحداتُها , وهي تصوغ هذه الوحدات حين تتخذ لها شكلاً بين كتلتين لا شكل لها . وبمثال تقريبي لهذا التصور شَبَّهَهُ بوجهي الورقة فلا يمكن أنْ يُقطعَ الوجهُ دون أنْ يُقطعَ الظهرُ كذلك لا يمكن فصلُ الصوتِ عن الفكر إلا بأطر منهجية تفضي إلى علم النفس أو النظام الصوتيّ .

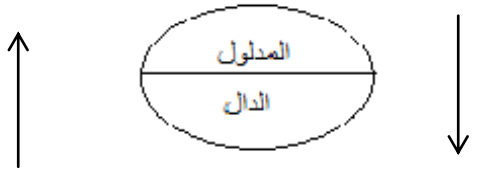

إنَّ ذلك يصبُّ في عرفية هذه القيم ونسبيتها بين لغة وأخرى , فالعلاقة بين الصوت والفكرةِ علاقةٌ عرفية اعتباطية أملتها عمليةُ الوضعِ الاجتماعيّ . ويبرز الأثرُ الوظيفيّ لمفهوم القيمة في النظام من الاكتفاء بكون العنصر يتألف من عملية الربط بين صوت ما وفكرة ما يفضي للتضليل إذ من شأن هذا التصور أنْ يعزل العنصرَ عن النظام الذي يعمل فيه , والحقيقة هي أن المرء لا يستطيع أنْ يبدأ بالعنصر ويبني منه النظام بعملية تأليفية , فالتحليل اللغوي ينطلق من البنية الكلية المترابطة العناصر إلى تجزئة وحداتها[٢٦]. والقيمة تنشأ من تواجد عناصر أخرى في وقت واحد بنحو ما يوضحه المخطط الآتي :

القيمة والدلالة

لقد تحدث سوسير عن الجانب الفكري للقيمة والجانب المادي لها تحدوه أهداف , بعضها يتعلق بجوهر اللغة ونظامها وكونها شكلاً لا مادة , والبعض الآخر يتعلق بالكيفية المسؤولة عن انتاج هذه القيم . وعلى الرغم من خصوصية هذا الهدف إلا أنه يصبُّ في الهدف الأول , فالقيمة من وجهة النظر الفكرية ما هي إلا عنصر من عناصر الدلالة , فهو يفرق بين القيمة والدلالة , فالدلالة تمثل ما يقابل الصورة الصوتية السمعية أي ما يقابل الدال , فهي تعتمد القيمة وتتميز عنها في الوقت نفسه , فقيمة كل عنصر تنشأ من وجود بقية العناصر في آن واحد[٢٧].

ويعمد سوسير إلى تقرير مبدأ عام تخضع له جميع القيم حتى القيم غير اللغوية , فالقيمة ترتكز على :

١- شيء مختلف يمكن استبداله بشيء يراد تحديد قيمته.

٢- شيء مشابه يمكن موازنته بالشيء الذي يُرَادُ تحديدُ قيمته , فقطعة ذات خمسة فرنكات مثلاً يمكن استبدالها بكمية ثابتة بشيء مختلف عنها كالخبز - في تشبيه سوسير- والمبدأ الثاني يمكن موازنتها بقيمة مشابهة في النظام النقديّ نفسه , كقطعة ذات الفرنك الواحد أو بقطعة من نظام نقديّ آخر كالدولار الأمريكيّ , وفي ضوء هذا التصور ينتهي إلى أنه يمكن استبدال الكلمة بشيء مختلف عنها كالفكرة ويمكن مقارنتها بكلمة أخرى , فالكلمة لا تتحدد في دلالتها على الأفكار بل ينبغي مقارنتها بقيم أخرى مشابهة وهذا ما يؤسس لمبدأ التقابل , فالكلمة لا تمتلك الدلالة فحسب فلها قيمتها لمَّا كانت جزءاً من النظام , فالمعنى يختلف عن القيمة في تصوّر سوسير , فالقيمة جزء من المعنى .[٢٨]

لقد لجأ سوسير إلى تأكيد هذا التصور باللفظة الفرنسية mouton غنم , التي لها الدلالة نفسها في الإنكليزية بكلمة sheep بيد أنَّ القيمة مغايرة لها , فالإنكليزية تفرِّقُ بين قطعة اللحم mutton الجاهزة المعدة للتناول على مائدة الطعام وبين قطعة

---

[٢٥] ينظر المصدر نفسه ٨٤ وما بعدها , وينظر : فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة و علم العلامات) جوناثان كلر ٧٤-٧٥ .

[٢٦] ينظر علم اللغة العام . سوسير ١٣٢-١٣٣

[٢٧] ينظر المصدر نفسه ١٣٣و ينظر: مدخل للسانيات سوسير . مبارك حنون ٨٦- ٨٧.

[٢٨] ينظر المصدر السابق ١٣٤ . وينظر: مدخل للسانيات سوسير . مبارك حنون ٨٧ وينظر : اللسانيات والدلالة . منذر العياشي ١٠٤

اللحم sheep غير المطبوخة , والفرنسيّة لا تمتلك هذا التفريق [٢٩], فهي تستعمل للمعنيين المذكورين مفردة mutton نفسها[٣٠]. وثمة مفردات تُعَبِّرُ عن أفكار متقاربة في اللغة الواحدة مما يجعلُ قيمَ هذه المفردات تتكون من خلال تمايزها عن البعض الآخر في الفروق مثل الكلمات الفرنسيّة redouter (يرعب) , و craindre (يخاف) avoirpeur (يشعر بالخوف) تستمدُ قيمتَها من التقابل فيما بينها , فلولا وجود كلمة redouter لتوزع محتواها الدلاليّ على اللفظتين المذكورتين[٣١] .

إنَّ ما ذهب إليه سوسير من أن الوحدات اللغوية لا أهمية لها حينما تكونُ منفردةً , فهي تكتسبُ قيمتَها عبر العلاقات الأفقية والعمودية مع الوحدات الأخرى نقول هذأ المبدأ يمكن تطبيقه على علم الدلالة المعجميّ , فمثلاً النظر إلى كلمة (دافئ) يبقى عديمَ الجدوى دون معرفة علاقاته مع المفردات (ساخن, بارد , متجمد) لأن معنى دافئ يمثل نقطة واحدة في سلسلة من التقابلات , والشيء نفسه ينطبق على مفردة (قطّة) فمعناها يمثل نقطة في سلسلة من التقابلات تضمُّ مفردات مثل : حيوان وكلب ونحوه . ويرى عالم الدلالة ليونز أنّ الاعتماد البنيويّ لمعاني الكلمة داخل اللغة يجعل من المستحيل على الطفل أو أي شخص آخر أنْ يتعلم معنى كلمة مفردة خارجة عن مجموعة منظمة دون الإحاطة في الوقت ذاته بمجموعة الكلمات الأخرى التي تتقابل معها , فلا يعرف المرءُ معنى كلمة (كلب) حتى يتحاشى إطلاقها على الذئاب أو الثعالب ونحوهما , الأمر الذي يؤكد أنَّ لكل لغة نظاماً دلالياً يختلف عن الأنظمة الأخرى مما يفضي إلى عدم التطابق الدلاليّ بين معاني مفرداتها و متصوراتها ، الأمر الذي ينعكس بصعوبة ترجمة المفردات من لغة إلى أخرى لفقدان التناسب الدلاليّ بين الكلمات [٣٢]. ونظرية الحقول الدلالية الصورية تمثلُ مصداقاً للقيم اللغوية المعجمية الدلاليّة ((فالكلمات التي تدل على تصورات تربطها علاقات القرابة أي ترتبط فيما بينها بمجالات الوعي البشري , وتشكل نسقاً (أي مجالاً دلالياً) من الوحدات المترابطة . وحين يتغير أحد التصورات الأخرى في المجال نفسه يتناولها التعديل , وهو ما يعنى تلقائياً حدوث تغير في معاني الكلمات المقابلة)) [٣٣].

إنَّ اقتفاء وتتبع أسباب حدوث الترادف ينتمي إلى نزعة اللسانيات التأريخية في بحثها عن العلل في تغيير عناصر اللغة وعلى وجه الخصوص بحثها في تغير معاني الألفاظ [٣٤], وهو أمر نأت عنه تزامنية سوسير , فالقيمة هي البديل الوصفيّ للتعليل التاريخيّ , فاللحظة الوصفية الراهنة للغة ترتكز على اكتشاف النظام وقيم العناصر التي تخلق ذلك النظام بعلاقاتها وتقابلها مع بعضها الآخر , فالقيم عرفية اعتباطية غير معللة. إنَّ الدراسات التي جهدت في رصد أسباب الترادف هي دراسات تاريخية وإنْ لم تفصح عن منهجها , كذلك الدراسات الدلالية المعاصرة التي أنكرت الترادف أو وضعت قيوداً لحدوثه هي الأخرى ـ وإنْ لم تفصح عن منطلقاتها النظرية ـ دراساتٌ تزامنيةٌ وصفيةٌ و إنْ لم تستحضرْ الأبعادَ النظريةَ الإجرائية التفصيلية للسانيات البنيوية الوصفية من أسبقية البنية على العنصر , والقيمة على النظام , والتزامن على التعاقب , ولكن بتشديدها على وحدة المتن للغوي يتأكدُ تبلور مفهوم التزامن الذي يتجسد فيه النظام في منطلقاتها [٣٥] .

---

[٢٩] ويذكر محمد الحناش أنَّ ((العربية تفرق مثلاً بين لحم الخروف والخروف نفسه أي الحيوان . فيقال اللحم والخروف وكذلك الإنكليزية لحم الخروف تسميه mutton والحيوان sheep بينما الفرنسية لا تستعمل إلا mouton لهما معا . فالعربية والإنكليزية تستعملان نظاماً يتضمن وحدتين . والفرنسية تستعمل نظامًا يتكون من وحدة واحدة)) البنيوية في اللسانيات . الحلقة الأولى . محمد الحناش ٢٠٧

والحق أنَّ العربية تشير لمطلق اللحم بهذه التسمية ولا تقتصر على لحم حيوان معين بل حتى لحم الإنسان تشير إليه بذلك , فالمفردة (لحم) بما تضاف إليه تكتسي معنى التعيين على لحم معين , فهي بذلك تخالف الإنكليزية أيضاً.

و لا تحضر مقابلة سوسير بين الفرنسية والانكليزية ـ عند محمد الشاوش في دراسته التعريفية عن سوسير- في إيضاح مفهوم القيمة بل يلجأ إلى مقابلة بين العربية والفرنسية في بعض مفردات العلاقة الأسرية فـ ((كلمة عم مثلاً تدل في العربية على " أخ الأب" وتحدد قيمتها ببقية الكلمات الدالة على القرابة الدموية و بالخصوص بكلمة خال أي أخ الأم . ولئن كانت كلمة oncle في الفرنسية تدل على معنى كلمة عم فليس لهما نفس القيمة لانعدام كلمة خاصة تعبر عن معنى خال في الفرنسية لكونهما من نظامين مختلفين)) سوسير والألسنية . محمد الشاوش ٢١.

[٣٠] ينظر : علم اللغة العام .سوسير ١٣٥ وينظر : فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات) جوناثان كلر ٨٨-٨٩ .

[٣١] ينظر المصدر السابق ١٣٥

[٣٢] ينظر: اللغة والمعنى ومعنى الكلمة : علم الدلالة آ. كروز ١٦٤ ضمن الموسوعة اللغوية . الجزء الأول تحرير ن . ي . كولنج

[٣٣] اتجاهات البحث اللساني .ميلكا إفيتش ٣٦٣

[٣٤] حول اهتمام اللسانيات بالتطور الدلالي ينظر: اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة . نعمان بوقرة ١٤-١٥, وينظر: اللسانيات والدلالة . منذر العياشي ٢١١

[٣٥] يصدق هذا التصور على كمال بشر في رفضه الترادف ينظر: هامشه في ترجمة كتاب : دور الكلمة في اللغة . ستيفن أولمان ١٣١- ١٣٢

وقد ذكر أولمان أنَّ الألفاظ المترادفة : ((هي ألفاظ متحدة المعنى وقابلة للتبادل فيما بينها في أي سياق))[٣٦] . إنَّ مبدأ إمكان إحلال المفردة محل الأخرى بما يفضي إلى التوافق الدلالي بين المعنيين هو بعينه مبدأ القيم السوسيري وإنْ لم يصرح علماءُ الدلالة واللسانيون بذلك , فهذا التصور يعضد مقولة سوسير التي مفادها كون اللغة شكلاً وليست مادةً , فالإحلال يعني انسجام المفردة مع مجاوراتها دلالياً , إذ النظر للمفردات المترادفة في حقل صوريّ إنما أملته ضرورةُ التحليلِ المعجميّ في التجزئة وضم المتشابهات تحت صنف واحد , فهذا العمل وإن كان مسوغاً على صعيد الصناعة المعجمية وآلياتها التجريدية بيد أنه غير مسوغ على صعيد التصور البنيوي ؛ فهو يعود إلى المبدأ الذي جهد بدحضه سوسير , وهو إمكان النظر إلى العنصر بمعزل عن النظام أو البدء بالعنصر وصولاً إلى النظام , فالإحلال يتضمن محلاً , والمحلُ هو البنية بمستوياتها المختلفة من تركيب وصوت وتعامل أصواتي ومفردات معجمية تسهم في إضفاء المعنى , فقد تجتمعُ مفرداتٌ كثيرةٌ متناثرةٌ ضمن التجزئة والتحليل للسلسلة الكلامية , واقتراب معانيها قد يوحي بترادفها التام , بيد أنَّ محلها أو موقعها في البنية يثبتُ عدمَ اتفاقِ معانيها .

إنَّ مشكلة المتن اللغوي أي المساحة الاستعمالية للغة في أطرها الزمانية والمكانية المحددة التي تصدر عن نظام تزامني (سايكروني) واحد المزمع وصفها لسانياً تضع قضية الترادف في مجس مبدأ القيمة في إجراء تجريبيّ يثبت انتماء المادة التعبيرية باختلاف أضربها لنظام لغوي واحد , فسوسير تأكيدا لمبدأ النظر التزامني أقر بأنّ عمل اللساني ينبغي أنْ يرتكز على فحص النظام الراهن المستكن في ذهن الفرد والحالة اللغوية الراهنة لا أن يتعقب التعبيرات المتعاقبة على النظام بصوره المتغيرة . وكأنَّ المتن اللغوي فيما يوحي به هذا التصور هو الذخيرة الذهنية للفرد بينما هو يؤكد في معرض تفريقه بين اللغة والكلام بأنَّ اللغة هي مجموع الصور التعبيرية التي يكتمل وجودُها لدى أفراد المجتمع لا الكلام الذي يتضمن استعمالاً آنياً وفردياً . وعلى ضوء التصور السايكروني سوف تنحسر المترادفات الكثيرة التي أنتجتها الحقب التأريخية المتعاقبة على المعنى ضمن إطار اللغة الواحدة على مختلف حقبها التأريخية ولا تحضر إلا ضمن المعجم التأريخيّ للغة , وإذا دُقِّقَ النظرُ سوف يتضح أنه لا قيمة لها في النظام التزامني الراهن , فقد يتضمن تداول المفردات تزامنياً كماً من الألفاظ المتعاقبة على معنى واحد ولكن لا تصل حدَ التواترِ المفرطِ أو التواترَ المثير للانتباه.

ويذهب أبو هلال العسكريّ ت ٣٩٥ هـ في كتابه (الفروق اللغوية)إلى إنكار الترادف متلمساً فروقاً في المعاني بين الألفاظ التي تبدو مترادفة معولاً في التفريق على مدلول اللفظ , والبحثُ يعثر ضمن الأسس التي يميز العسكريّ الألفاظ المترادفة في ضوئها التي جعلها إطاراً نظرياً للتفريق نقول البحث يعثر على مبادئ تنسجم معها مفاهيم سوسير في التمييز بين الدلالة والقيمة في النظر لمدلولات الألفاظ ضمن العلاقات بين مكونات النظام , لا أنَّ العسكري قد سبق سوسير إلى مبدأ التزامن والقيمة بل ثم التقاء بينهما في رصد دلالة الألفاظ في النظر إلى بقية ألفاظ اللغة بما يقترب من فكرة التقابل , نحو المبدأ الذي مفاده أنَّ الفرق يُعْرَفُ من جهة اعتبار النقيض , مثل (الحفظ) و(الرعاية) , فهما ليسا مترادفين ؛ لأنَّ نقيض (الرعايةِ) (الإهمالُ) , ونقيض (الحفظِ) (الإضاعة) ((يقال للماشية إذا لم يكن لها راع : همل , والإهمال هو ما يؤدي إلى الضياع , فعلى هذا يكون الحفظ صرف المكاره عن الشيء لئلا يهلك , والرعاية فعل السبب الذي يصرف المكاره عنه ....))[٣٧] . أي على ضوء لسانيات سوسير أنّ قيمة (الحفظ) ليست قيمة (الرعاية) ؛ لأنَّ الحفظ يدخل في علاقة تقابلية مع (الإضاعة) , و(الرعاية) تتقابل مع (الإهمال), كذلك اقتراب العسكريّ من فكرة التقابل الحاصل في علاقة المفردات ضمن محور التوزيع الأفقي بدخولها مع علاقات نحوية تجاورية رأسية من خلال ما ذهب إليه من أنَّ الفرق يحصل من جهة الحروف التي تتعدى بها الأفعال المراد التفريق بين معانيها ((وأما الفرق الذي يعلم من جهة الحروف التي تعدى بها الأفعال فكالفرق بين العفو والغفران , وكذلك أنك تقول: عفوت عنه , فيقتضي ذلك أنك محوت الذنب والعقاب عنه , وتقول : غفرت له , فيقتضي ذلك أنه سترت له ذنبه ولم تفضحه))[٣٨] , فالتقابل حاصل بين العلاقات النحوية في توزيع الفعل ضمن المحور الأفقي.

المبحث الثاني :

من المتوقع أنْ يشيع مفهوم القيمة في الدراسات اللسانية الوصفية العربية , فهو ثمرة لسانيات سوسير البنيوية التي لا تتخطى البنية أو علاقاتها الشكلية أما المسار المنهجي للسانيات العربية في توجهاتها التوليدية والتداولية ولسانيات النص فاختلاف الاهتمامات اللسانية الذي يرصد مصاديق شكلية في العربية تنسجم مع منطلقاتها النظرية أو الإجرائية يبعدها عن استحضار تلك الأبعاد الإجرائية البنيوية والوصفية , فمن الطبيعي أنْ ينحسر هذا المفهوم في تلك الدراسات.

انبثاق مصطلح (القيمة الخلافية) وشيوعه في الدراسات العربية

يمثل عام ١٩٧٢ إطلالة دراسة وصفية عربية تطبيقية استوعبت أنظمة اللغة العربية بمختلفها تمثلت بكتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) لتمام حسان التي تغلغل في مفاصلها مفهوم القيمة السوسيري بنحو ملفت للنظر , ولكن المقابل الاصطلاحي

---

[٣٦] ينظر: دور الكلمة في اللغة . ستيفن أولمان ١١٩

[٣٧] الفروق اللغوية . أبو هلال العسكري٢١٧

[٣٨] المصدر نفسه ٢١

لهذا المفهوم انبثق على يد تمام حسان قبل ذلك , فقبل ظهور الترجمات العربية لمحاضرات سوسير [٣٩] شاع مقابل عربي لـ Linguistic value هو (القيمة الخلافية) على يد تمام حسان عام ١٩٥٥ في كتابه (مناهج البحث في اللغة) [٤٠] وهذا الكتاب يُعَدُّ نصاً مؤسساً لتلقي المنهج الوصفيّ في اللغة العربيّة , وقد وَرَدَ في مواضع كثيرة [٤١], وفي الفصل الأخير من الكتاب الذي عُنِيَ بالدلالة يرد أيضاً في موضع يعرض فيه تمامُ حسان أفكار سوسير الواردة في محاضراته عن الدال والمدلول والعلاقة بينهما , إذ ترد فيه المخططات الصورية التي تميز بين الفكرة والصورة السمعية , والخط الأفقي الذي يوضح عمل القيم باجتماعها بما يشكل نظاماً علائقياً قيمياً , فالمخططات الواردة عند تمام حسان [٤٢]هي هي الواردة عند سوسير [٤٣], فالموضع قرينة دالة على اقتباس هذا المفهوم من محاضرات سوسير , ومما يؤخذ على حسان عدم وضعه مقابلاً اصطلاحياً موفقاً لإيضاحه الفرق بين القيمة والمعنى على الرغم من وعيه المتقدم وسبقه إلى هذا الوعي لما يريد أنْ يذهب إليه سوسير من التفريق بينهما , فقد استعمل حسَّان القصد بما يكافئ المعنى , فقد ذكر أنَّ القيمة لا تساوي القصد وإنْ كانت القيمة جزءاً من القصد [٤٤] , والصحيح – فيما يرى سوسير - أنَّ القيمة لا تساوي المعنى وإن كانت القيمة جزءاً من المعنى , فثمة تنافر مفاهيمي بين المعنى والقصد , فالمعنى ينسجم مع منطلقات سوسير البنيوية التي تدرس اللغة بمعزل عن استعمالها بينما القصد يتعلق بأغراض إبلاغية ترتبط بالمتكلم , والمتكلم ليس ركيزةً محوريةً عند سوسير بل النظام المتأتي من العلاقات العرفيّة التي منشؤها المجتمع وقيمه اللغويّة [٤٥].

وقد شاع بعد حين مصطلح القيمة الخلافية عند غير حسان من اللسانيين العرب واقتبسوه منه [٤٦] , وأفادت منه الترجمات العربية لنص المحاضرات [٤٧].

إنَّ الوارد في محاضرات سوسير هو(القيمة value) وحدها أو (القيمة اللغوية Linguistic value) ولكن اصطلاح حسان هو(القيمة الخلافية) بإضافة الصفة (الخلافية) في نعت (القيمة) , ولعلَّ السببَ يكمن من وراء ذلك هو استحضاره لمفهوم يعمل ضمن الإطار النظريِّ البنيويِّ في تصوّر سوسير عن اللغة , فسوسير يرى أنَّ ما في اللغة سوى الاختلاف بين عناصرها .

وفي بعض المعجمات الثنائية اللغة (العربية الإنكليزية) يرد المقابل العربي (قيمة) لمفردة value الإنكليزية , مما يدلل على أنَّ شيوع القيمة مصطلحاً لسانياً عربياً مقابلاً للأصل السوسيري عند الباحثين العرب يعود في واحد من أسبابه ــ ولعله من أهمها ــ هو مناسبة الاصطلاح للمقابل اللغوي , فمعاني value التي يعطيها المعجم اللغوي تكاد تنحصر ضمن الحقل الاقتصادي , فقد تنوعت بين (قيمة مالية , وقيمة السوق , والسعر, والثمن , وقدر, وأهمية ....) . والطريف أنَّ صاحبي (المورد الحديث) أوردا من بين تلك المعاني الاستعمالية لمفردة value أنها (المدلول الدقيق للكلمة) [٤٨], والشائع

---

[٣٩] ظهرت أول ترجمة عربية لمحاضرات سوسير عام ١٩٨٤ ينظر : اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة . دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته . حافظ اسماعيلي علوي ٢٠٠

[٤٠] يذكر الباحث حلمي خليل أن كتاب (مناهج البحث في اللغة) ظهر عام ١٩٥٥ ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي . حلمي خليل ١٩٨- ١٩٩.

[٤١] ينظر : مناهج البحث في اللغة . تمام حسان ٢٠ , ٧٩, ٨٤ , ٨٨, ٨٩ , ٩٠ , ٩٦, ١١٢, ١٢٧

[٤٢] ينظر المصدر نفسه ٢٤٤-٢٤٥

[٤٣] ينظر: علم اللغة العام . سوسير. ترجمة يؤئيل يوسف عزيز ٨٥-٨٦ , ١٣٤وينظر : محاضرات في الألسنية العامة . سوسير . ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر٨٨.٨٩, ١٤٠, وينظر: محاضرات في علم اللسان . سوسير ترجمة عبد القادر قنيني ١٠٤, ١٧٠

[٤٤] ينظر: مناهج البحث في اللغة . تمام حسان ٢٤٤

[٤٥] وفي المخططات الواردة عند حسان نراه يستعيض عن الفكرة أو المفهوم بالقصد , ثم يستعيض عن الصورة الصوتية بالرمز مقتفياً بذلك أثر سوسير الذي وضع الفكرة مقابل الصورة الصوتية في منحىً دائري ثم استعاض عن الاثنين بمصطلحي الدال significant والمدلول signified؛ ليبين قيمة الآصرة النفسية والتداعي بين الاثنين مبرهناً عدمَ إمكان الفصل بينهما بهذين المصطلحين اللذين يوحيان بالتداعي والترابط في العلامة اللسانية , لكن التوفيق قد جانب الاستعاضة عن الفكرة بالقصد لدى حسان مثلما جانبه أيضاً في الاستعاضة عن الدال بالرمز , فالقصد يتعلق بأغراض إبلاغية محورها الكلام وهو بعيد عن نشاط سوسير كما نوه البحث , والرمز يمثل مصداقاً إشارياً يصدق على مختلف العلامات التي ينتجها العرف الاجتماعي التي تمثل تصورات ثقافية عن أشياء مختلفة لا تقتصر على العلامات اللسانية نحو دلالة غصن الزيتون على السلام والميزان على العدالة ونحوهما .

ينظر: علم اللغة العام سوسير ٨٦ وينظر: البحث عن فردينان دو سوسير . ميشال أريفيه ٨٠-٨١ وينظر : مناهج البحث في اللغة . تمام حسان ٢٤٣

[٤٦] ينظر: البنيوية في اللسانيات . الحلقة الأولى محمد الحناش ٢٠٧ وينظر: الألسنية العربية . ريمون الطحان ٣١, ٧٤

[٤٧] ينظر :علم اللغة العام . فردينان دي سوسير . ترجمة يؤئيل يوسف عزيز ١٣١ وينظر :محاضرات في الألسنية العامة . فردينان ده سوسر ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر ١٣٧ وينظر : محاضرات في علم اللسان العام . فردينانذ دي سوسير. ترجمة عبد القادر قنيني ١٦٦

[٤٨] ينظر: المورد الحديث . رمزي البعلبكي , و منير البعلبكي ١٣٠٠

لمقابل signified هو المدلول , أما أنْ ينعت هذا المدلول بكلمة (دقيق) , فلعله أمر مرده عند صاحبي المعجم هو التفريق بين المعنى البنيوي وبين المدلول , فالأخير قد يمثل مشتركاً عاماً بين مختلف اللغات ولكن وَضْعَ كلِ مدلولٍ ضمن إطار لغته في تقابلات أخرى يفضي لقيم مختلفة بين اللغات للمدلول نفسه .

ويذكر تمام حسان موضحاً أهمية القيمة الخلافية في التحليل الصوتي : ((والمعروف أنَّ كل شيء يمكن أن يحد إيجاباً أو سلباً , والحد الايجابي ذكر الماهية , والسلبي ذكر النقيض أو بعبارة الأصوليين الإيجابي ذكر الماهية, والسلبي مفهوم المخالفة . وكما أن بعض حد الشيء أنه هو نفسه , يمكن أنْ يقال إنَّ بعض حده أيضاً أنه ليس هو ذلك الشيء الآخر . وهذا البعض الأخير من الحد يستخدم كثيراً باعتباره " قيمة خلافية" ضرورية في فهم أي شيء . " فالقيم الخلافية" إذا هامة جداً في دراسة الأصوات والتشكيل, بل لها من الأهمية ما يساوي أهمية " القيم الوفاقية"))[٤٩] .

ففي نصه هذا تصور لا ينمُّ عن استيعاب القيمة الخلافية لكل مكونات اللغة ووحدات أنظمتها , فوصفها بأنَّ لها أهميةً يشي بمفاضلتها على وسائل تحليلية أخرى , في حين في تصور سوسير فإنَّ القيمة تُضارعُ الوحدةَ اللغوية أي وحدة كانت بالنظر إلى علاقتها ببقية الوحدات بإطار نظام متزامن , فلا يمكن أنْ ينطلقَ الوصفُ اللغوي بدون الارتكاز على مفهوم القيمة .

ومما يعضد هذا الرأي أنَّ تصورَ حسان لم يكن دقيقاً عن القيم الخلافية من أن لها من الأهمية ما للقيم الوفاقية من أهمية , وليس ثمة من قيم يمكن نعتها بأنها قيم وفاقية , فالقيم في ـ تصور سوسير ـ قيم سلبية خلافية فحسب , ويبدو للبحث أنَّ مصطلح القيم الوفاقية مرده تجزئة مفاهيمية خاطئة للمدلول الاصطلاحي للقيمة الخلافيّة , فهو في كثير من المواضع التحليلية للوحدات الصوتية يستعملُ (التواردَ والتخارجَ) [٥٠] في التمييز بين إمكانية الإحلال (إحلال الفونيم) قاصداً بالتوارد أنَّ الوحدات الصوتية (الفونيمات) يمكن أنْ تشغل الموضعَ نفسه على اختلاف تنوعاتها الأدائية , ولكن اشتراكها بصورة مجردة تُدْعَى (الفونيم) يبيح لها أنْ تشغل الموضعَ نفسه , ولعلَّ ذلك هو المقصود بالقيم الوفاقية , فحسَّان يميز بين الحرف والصوت أي بالاصطلاحات الصوتية النظرية ـ بين الفونيم والألفون ـ ويقابل ذلك (التخارجُ) ويعني بذلك التقابل بين الوحدات الصوتية بما من شأنه أنْ يحقق المغايرة بين فونيم وآخر , فالتخارج عند حسَّان هو القيم الخلافيّة , وهذان الإجراءان لا ينفصلان عن القيم الخلافيّة في التصور البنيويّ الدقيق , فليس من مسوغ لاجتراح اصطلاح آخر , فالإحلالُ يستدعي المقابلةَ في إجراء واحد . وربما السبب من وراء وضع مصطلح (القيم الوفاقية) يعود إلى اهتمام حسَّان بتلك التنوعات الصوتية التي تعود إلى مفهوم (الكلام) لا (اللغة) انطلاقاً من اهتمامه وتأثره بمدرسة لندن الوظيفية وامتداد النظر عندها إلى اللغة في أطرها الاجتماعية , بيد أن الأصل السوسيري ينطلق من مبدأ أنَّ اللغة شكل لا مادة والذي يبرهن على ذلك وحدةُ القيمِ لتلك التنوعات الصوتية , فالتصور السوسيري لا ينظر إلى الكلام , فموضوع البحث عنده هو اللغة.

وقد اكتفت بعض المعاجم اللغوية النظرية المهمة على تقديم بعض المقابلات الإجرائية التحليلية لمفهوم القيمة فقد اقتصرت على القيمة الدلالية semantic value معرفة إياها : ((قدرة العنصر اللغوي على التأثير في المعنى , مثال ذلك قدرة الفونيم على تغيير المعنى إذا حلَّ محل فونيم آخر كما في ban وpan)) [٥١] .

ولم يقدم هذا الباحث المصطلحَ النظريَّ الرئيس ولاسيما وهو يمسُّ جوهرَ اللسانيات النظرية في التفريق بين التزامن والتعاقب , وهذا المعجم قد قَصَرَ اهتمامُهُ على تقديم المصطلحات النظرية لعلم اللغة لا المصطلحات التطبيقية , وعند التدقيق في المثال وفي التعريف يتضح أنه يقصد التقابلَ الدلاليِّ لا القيمةَ الدلاليّة , فالقيمة الدلالية أثرها يمتد إلى النظام برمته لا إلى عنصر يحلُّ محل عنصر آخر مع حدوث التغيير فهذا هو التقابل , ولكن إذا امتد النظر إلى النظام برمته فهذه هي القيمة , ومن الواضح أنه يريد الأول لا المفهوم الثاني, من هنا يتضح أنَّ تقديم المصطلح لم يكن موفقاً على الرغم من الجهد الطيب والمتميز لهذا الباحث الذي استوعب معجمه كماً كبيراً من المصطلحات النظرية اللسانية . واكتفى المسديّ في (قاموس اللسانيات) بوضع مقابل عربيّ هي مفردة (قيمة) أمام المفردة الفرنسية valeur من دون بيان أو شرح مفاهيمي للمصطلح [٥٢] , وقد اقتصر (معجم مصطلحات علم اللغة الحديث) الصادر عام ١٩٨٣ على تقديم المقابل العربي لـ (value القيمة) و (semantic value القيمة الدلالية) من دون توضيح لمفهومهما الاصطلاحي أو تقديم مقابلات عربية لمصطلحات قيم الأنظمة اللغوية الأخرى [٥٣] . إنَّ الدراسات العربية التي توقفت عند كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) لم تحفل بالتوقف عند مفهوم القيمة الخلافية وامتداده فيه , فالجانب الأهم الذي استقطب انظارَ الباحثين هو خروجه على التقسيم الثلاثي للكلام , ومجيئه بتقسيم سباعي جديد [٥٤] , وقوله بأنَّ تحليل الكلام على ضوء قرائن معنوية ولفظية يغني عن القول بوجود العامل النحويّ , وهذه القرائنُ تدلُّ على المعاني الإعرابية [٥٥] مع العناية بفكرة المعنى وتشقيق الأنظمة اللغوية (صوت , وصرف , ونحو) انطلاقاً من المعاني التي ترتكز على المباني المتجسدة في هذه الأنظمة , والاهتمام

---

[٤٩] مناهج البحث في اللغة . تمام حسان٨٤

[٥٠] ينظر المصدر نفسه ١٢٧فما بعدها وينظر: اللغة العربية معناها ومبناها . تمام حسان ٧٥-٧٦ .

[٥١] معجم علم اللغة النظري. محمد على الخولي ٢٥١ -٢٥٢

[٥٢] ينظر: قاموس اللسانيات . عبد السلام المسديّ ١٧٥

[٥٣] ينظر: معجم مصطلحات علم اللغة الحديث . محمد حسن باكلا . وآخرون ٧٦

[٥٤] ينظر : المنوال النحوي العربي قراءة لسانية جديدة . عز الدين مجدوب ١٩٣-٢٠٢

[٥٥] ينظر: اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة . حافظ اسماعيلي علوي٢٤٧-٢٤٨

بالمعنى الاجتماعي المتعلق بسياق الحال (المقام) الذي أفاده من مدرسة لندن اللغوية وجهود فيرث[٥٦] , ليغيب في خضم ذلك عن عنايتهم مفهومُ (القيمة الخلافيّة) فقد تواتر بنحو ملحوظ وتغلغل في كل فصول الكتاب وارتكز عليه التحليل , ولكنهم على الرغم من ذلك لم يحفلوا به ! ومن توقف منهم عنده فقد توقف بنحو مقتضب لم يتجاوز أمثلةً محدودةً للتقابل الفونيمي رابطاً إياه بمفهوم السمة التمايزية فقد أشار ((أما مصطلح القيم الخلافية فهو يتصل بفكرة الملامح المميزة Distinetive Features من ناحية , وفكرة التوزيع التقابلي Contrastive Distribribution من ناحية أخرى , أو كما يقول دكتور تمام " إنها القيم التي تتمايز بها وظائف الأصوات في الكلمات" فالصحة والعلة , كما يقول والجهر والهمس والترقيق والاطباق وغيرها , هي قيم خلافية أو ملامح مميزة لكل فونيم من فونيمات اللغة , وفي الوقت نفسه يقف كل منهما في مقابل الآخر وينتج عن هذا التقابل قسط من المعنى , ومثل ذلك أيضا في القيم الاستبدالية عن طريق إحلال فونيم محل آخر في كلمة ما))[٥٧] .

والحقُّ أنَّ مفهوم السمة التمايزية مفهومٌ متأخر انبثقَ على يد رومان ياكوبسن , ولم يقدم حلمي خليل المصطلحَ الإنكليزي للقيمة الخلافية بل قَدَّمَ مصطلحَ السمة التمايزية . والتقابلُ في السمة التمايزية ليس نظيرَ التقابلِ في القيم الخلافيّة الذي هو تقابل فونيمي , فالسمة التمايزية هو تقابل بصفة معينة من صفات الفونيم إذ الفونيم مجموعة من الصفات , فقد يشترك فونيمان بمجموعة من الصفات ويفترقان بصفة تمايزية واحدة فيتقابلان فيها , كما أن السمة التمايزية تقصرُ التقابلَ في المجال التحليلي الصوتي ولا تمتد إلى الوحدات التحليلية الكبرى من أنظمة الصرف والنحو والدلالة . وقد شاعت السمة التمايزية كآلية تحليلية في كثير من الدراسات الصوتية العربية , وبعضهم قد أشار إليها صراحة بوعي تحليلي [٥٨] . و تمام حسان نفسه لا يسلم من الخلط بين التقابل الفونيمي وبين السمة التمايزية كما سيجيء بيانه , فالكثير من التقابلات الصوتية كانت تقابلات في السمة التمايزية , الأمر الذي يؤكد عدم وعي حلمي خليل لامتداد القيم الخلافية عند حسان , فهي لا تقتصر على الجانب الصوتي , وكذلك عدم ادراكه بأثرها الوظيفي في عمل النظام , فالسمة التمايزية وحدة تحليلية لا تتجاوز المستوى الفونيمي , فلم يهتد حلمي خليل لأهمية القيمة الخلافيّة عند تمام حسّان.

وما يؤكد ذلك هو أنَّ الدراسة الفينولوجية للغة ما المهتمة باكتشاف الوحدات الصوتية وحصرها بعدد معين تلجأ إلى الفونيم بوصفه وحدة مستقلة يُحْدِثُ استبدالها تغيراً في المعنى , ومنطلقها في الكشف عن النظام الصوتي هو التقابلُ الفونيمي , فالتقابلات الصوتية عند سوسير هي تقابلات فونيمية . ولم يرتض ياكوبسن أنَّ يكون التقابلُ الصوتيُّ تقابلاً فونيمياً بل مضى نحو البحث عن نُويّات صغيرة يتشكلُ منها الفونيم , فالفونيم هو مجموعة من هذه السمات الصغيرة والتقابل بين هذا الفونيم والفونيم الآخر لا ينشأ من مجموعة السمات المشكلة للفونيم , فربما يشترك الفونيمان بمعظم السمات ضمن إطار الفونيم الواحد ولكن يتقابلان بسمة واحدة فقط أُصْطُلِحَ عليها بالسمة التمايزية ((فالفونيمان \p\ و \b\ يتقابلان في الفرنسية لانهما يستخدمان في التمييز بين pierr وbiere . فتقابلهما لا يقوم إلا على سمة واحدة وهو بالتالي ليس تقابلاً كلياً شاملاً وانما ينحصر في العلاقة بين المجهور \b\ وغير المجهور \p\ . فنحن لا يمكن أنْ نميز الفونيم المجهور إلا إذا كان هناك فونيم غير مجهور. وهذه الثنائية هي التي تجعل السمة أكثر وضوحاً وأكثر بروزاً . وكل العلاقات بين الوحدات الصوتية التمايزية في لغات مختلفة تخضع لنظام ثنائي (وجود أو عدم وجود سمة تمايزية معينة)))[٥٩].

وينتقد مصطفى جمال الدين ما ذهب اليه حسّانُ من مساواته البحثَ الأصولي بالبحث المنطقي و القول باشتراكهما في البحث عن الحكم , فهو يتعلق عند المناطقة بالصواب والخطأ , وعند الأصوليين بالوجوب والإباحة ونحوهما من أحكام , وهذا ـ في رأي حسان ـ لا يتصل بالمعنى العرفي والاجتماعي مشيراً إلى أنه لم يتيسر لحسان الاطلاع والإفادة من الكتب الأصولية ؛ سوى ما قدمته بعض المصادر الأصولية الميسرة فيما يتعلق بمفهوم (المخالفة) ؛ مؤكداً أنَّ مفهوم المخالفة لا يشكل إلا جزءاً يسيراً في البحث عن المدلول عند الأصوليين لو عرف الباحثون وعرف حسان ما بذله الأصوليون من جهد دلالي لتغيرت نظرتُهم . وكلامُ جمال الدين جاء في مقدمة دراسته للتأكيد على أهمية البحث الأصولي وعدم ايلاء الباحثين أهمية له مستشهداً [٦٠] , بما قاله حسّان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) من أن للأصوليين بلاء حسناً في تحديد المعنى من ذلك تقديمهم لنوع سلبي في الدلالة اصطلحوا عليه بـ (مفهوم المخالفة) مؤكداً أهميته وارتباطه بمفهوم (القيم الخلافية) المكونة للأنظمة [٦١] .

إنَّ دلالة المخالفة في البحث الأصوليّ هي دلالة مستنتجة لا قصدية يشفُّ عنها ظاهرُ اللفظِ الحرفيّ , فالدلالةُ تُقْسَمُ عندهم إلى دلالة منطوق ودلالة مفهوم , ودلالةُ المنطوقِ مثالُها قوله تعالى :((فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُفٍّ)) الإسراء\ ٢٣ , فظاهر النص يدلُّ على النهي عن التأفف أما دلالة المفهوم فتقسم إلى دلالة موافقة ودلالة مخالفة , فدلالة الموافقة يكون فيها حُكْمُ المسكوتِ عنه موافقاً لحكمِ المنطوق به , فالضربُ وإنْ سكتتْ عنه الآيةُ ؛ فهو منهي عنه , مثل حكم التأفف المنطوق به , أما دلالة

---

[٥٦] ينظر المصدر نفسه ٢٤٣-٢٤٤وينظر:العربية وعلم اللغة البنيوي . حلمي خليل ٢٢٧وينظر : مناهج الدرس النحوي في العالم العربي . عطا محمد موسى ٣١٥ فما بعدها

[٥٧] ينظر: العربية وعلم اللغة البنيوي. حلمي خليل ٢٣٠

[٥٨] ينظر: علم الأصوات العام . أصوات اللغة العربية. بسام بركة ١٠٩-١١٠

[٥٩] ينظر :النظرية الألسنية عند رومان ياكوبسن . فاطمة الطبال بركة ٤٢

[٦٠] ينظر: البحث النحوي عند الأصوليين . مصطفى جمال الدين ٧-٨ .

[٦١] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها . تمام حسان ٢٤.

المخالفة فحكم المسكوت عنه نقيض حكم المنطوق به فالمأثور الشرعي المنطوق به من الأحكام يوجب الزكاةَ في الغنم السائمة , بينما دلالة المخالفةُ لا توجب الزكاةَ في الغنم المعلوفة [٦٢]. ونحو ذلك إذا قيل في بيان صادر عن دائرة المرور:(يسمح للسيارات التي تبدأ بأرقام فردية السير في يوم السبت والاثنين والأربعاء والجمعة) فدلالة العبارة من خلال منطوقها الحرفي هو السماح للأرقام الفردية بالسير في هذه الأيام , لكن الدلالة المستنتجة (دلالة المفهوم) التي هي دلالة مخالفة ستكون بالضد من تلك أي لا يسمح للأرقام الزوجية السير في هذه الأيام .

ويرد هذا المصطلح (القيمة الخلافية) عند جمال الدين في حديثه عن دلالة المخالفة في إطار أصولي بحت من غير أنْ يستحضر مقارباتٍ وصفيةٍ حديثةٍ أو يقتبس شيئاً مما انتهى إليه حسان من مقررات [٦٣] , ويبدو أنه اطمأن إلى تسوية حسان بين المصطلحين . والبحث يرى أنَّ ثمة تقاطعاً نظرياً و تنافياً بين المفهومين , فمصطلحُ الأصوليين يتعدى الشكلَ اللغويّ الحرفيّ لدلالة المنطوق من قضايا دلاليةٍ مسكوتٍ عنها يستنتجها المخاطبُ بالارتكاز على كفايته التواصلية ؛ فيدخل في إطار ما يسمى تداولياً بـ (المضمر) [٦٤]. وحسان الذي يقوم كتابُه على فكرة المعنى ويحتفي بالمعنى الاجتماعي يرى قصوراً في دراسة المعنى البنيوي الشكلي وعولَّ في دعوته هذه إلى ما قرره فيرث في دراسته الوظيفية للمعنى وتقسيمه له على ثلاث أنواع يتبناها حرفياً حسان ، وهي المعنى الوظيفي الناشئ من تقاطع محور الاختيار بمحور التوزيع , ثم المعنى المعجمي لتلك الوظائف المجردة , وبعد يأتي المعنى الاجتماعي ضمن سياقِ الحالِ , وقد نوَّه بجهود البلاغيين في تصوراتهم عن المقام من دون أنْ يقترب من الجهد الأصولي , وهو جهد غني تداولياً لتصدق دعوى جمالِ الدين بعدم اطلاعه الدقيق على منجزهم الدلالي . وهو جهدٌ يتكفلُ بالتخطي للدلالة الحرفية (دلالة المنطوق) وهو عَيْنُ ما يسعى إليه حسّان , ولكن الخطأ الفادحَ هو أنَّ القيمة الخلافية هي قيم بنيوية شكلية مجردة عن إطار المعنى الاجتماعي , ودلالة المخالفة عكسها تماماً ! فحتى دلالة المنطوق الحرفية هي تخضع لمبدأ القيمة الخلافي البنيوي الوصفي فاختلاف نسجها الشكلي يتيح لدلالات لا حصر لها مما يسمى بدلالة المنطوق بالتكون , فالجملُ المعزولةِ عن سياق بثها لا شك أنَّ كل واحدة منها تخضعُ لقيم سلبيةٍ تقابلُ الأخرى , وهذه الجملُ تصدقُ على دلالتها أنها دلالةُ منطوقٍ . ويمكن نعت صنيع حسَّان هذا بأنه إسقاطٌ منهجيّ ورطَهُ فيه الشَّبهُ اللغويّ اللفظيّ بين مصطلح الخالفة الأصوليّ ومصطلح القيمة الخلافية البنيوي مع ما في مفهوميهما من تباين , في وقت تحتم فيه المقاربةُ المنهجيةُ الموازنةَ بين مفاهيم المصطلحات ومدلولاتها النَّظرية لا ألفاظها .

القيمة الخلافية ونقد العامل وتعليلات النحاة الاعرابية

يذهب حسَّانُ في كتابهِ (مناهج البحث في اللغة) إلى أنَّ القيم الخلافيّة هي التي تميز بين بابٍ وآخر من أبواب النحو , فهي المسؤولة إلى حدٍّ كبير عن رفع (محمد) ونصب (علي) في جملة (ضَرَبَ محمدُ علياً) عازياً السبب في ذلك إلى الاختلاف بين وظيفة الفاعل ووظيفة المفعول في الجملة ؛ مؤكداً في الوقت نفسه أنَّ ابن مضاء القرطبي ت٥٩٢هـ قد فطن إلى هذا الأمر من قبل , فالعرب في تصور ابن مضاء راعت المعاني وجعلت اختلاف الألفاظ دليلاً على اختلافها , ويستشهد بالجملة الآتية – التي أوردها ابن مضاء- (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) فدلالة النصب تنهي عن الجمع بينهما , أما الجزمُ فينهاه عن الجمع والتفرقة , والرفعُ ينهى عن أكل السمك ويوجب شُرْبَ اللبنِ , ويؤكد حسّان أنّ ابن مضاء يجعل اختلاف الحركات تبعاً لاختلاف المعاني الدلالية , فلو انصف ابن مضاء – والقول لحسان- لجعل اختلاف الحركات الإعرابيّة لاختلاف الوظائف النحوية التي يؤديها الفعل المضارع (تشرب) , فاختلاف الوظيفة بنظر حسان مؤثر في الجملة وهذا الخلاف هو القيمة الخلافية[٦٥] . ويقرر حسان أنَّ ((القيم الخلافية إذا أثرت في السياق هذا التأثير , لم يكن هناك داع لافتراض عامل ومعمول في الجملة . ولإيضاح ذلك نقول إن الأبواب الرئيسية في النحو ذات مواقع معينة في السياق , فالفعل قبل الفاعل دائماً . والمبتدأ يسبق الخبر في الغالب , والإشارة تسبق المشار إليه , والموصول يسبق الصلة , والموصوف يسبق الصفة , وهلم جرا . فإذا جاء اسم منصوب , فنصبه على الخلاف بينه وبين الفاعل , وتقدم الخبر على المبتدأ إنما يكون مثلا لاختلاف الوظيفة في نحو " زيد قائم" عنها في " أقائم زيد" . وإذا تأخرت الإشارة عن المشار إليه في نحو " لقاء يومكم هذا" , فللخلاف بين "يوم" في حالة الإضافة كما في المثال , وبينه في حالة اتصاله بأداة التعريف كما في هذا اليوم))[٦٦] . والحقُّ أنَّ فكرة القيمة الخلافية ليس من شأنها أن تجهز على نظرية العامل وتقوم بديلاً عنها , فهي – في نظر البحث- تكون مصداقاً لمفهوم القيم , فالأثر الشكليّ الذي يُكْسَعُ به المعمولُ يقتضي وضعاً وتوزيعاً وترتيباً معيناً يخصُّ العاملَ المؤثرَ , والترتيبُ بين الوحدات الوظيفية التي تتوزعَ في المحور الأفقيّ من شأنه أن ينشئ قيمةً خلافيّةً نحويةً . ويشير حسَّان إلى أهمية القول بالقيم الخلافية وجعلها بديلاً عن العامل : ((ليس القول بأثر القيم الخلافية في السياق قولاً بنظرية جديدة للعامل ؛ لأن القيم الخلافية لا تعمل , وإنما تراعى . وهي فروق سلبية , لا عوامل إيجابية . وهي من ناحية أخرى , يمكن أن تبنى عليها نظرية نحوية شكلية تامة , ليس لها ما لنظرية العامل من التناقض , والحاجة إلى التأويل و

---

[٦٢] ينظر: الإحكام في أصول الأحكام . سيف الدين الآمدي ٢٥٧\٢

[٦٣] ينظر: البحث النحوي عند الأصوليين . مصطفى جمال الدين ٢٧٧

[٦٤] حول مفهوم المضمر ينظر: المضمر. كاترين كيربرات , أوريكيوني ٤٠.

[٦٥] ينظر: مناهج البحث في اللغة. تمام حسان ٢٠٦-٢٠٧

[٦٦] ينظر المصدر نفسه ٢٠٧

التمحك)) [٦٧] . وعلى الرغم من الاحتفاء الكبير بمفهوم القيمة الخلافية من قبل حسان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) إلا أنه وعلى خلاف المتوقع منه فيما كان قد صرح به في (مناهج البحث في اللغة) فيما يتعلق في القيم الخلافية والعامل نقول إنه لم يعتمد القيم الخلافية في تفسير الحركات الإعرابية ومناهضة العامل بل انطلق من تضافر القرائن المعنوية واللفظية في تحديد الوظائف النحوية للوحدات (الأبواب) جاعلاً العلامة الإعرابية مصداقاً من مصاديق القرائن اللفظية مثل الصيغة والنغمة والرتبة .[٦٨]

ويستثمر حسان مفهومَ القيمةِ الخلافيّةِ في نَقْدِ قسمٍ من تعليلات النحاة في تفسير جملة من المنصوبات من أصناف الكلام , نحو المنصوب على الاختصاص ؛ منطلقاً من مفهوم القرائن المعنوية في تعيين المعاني الوظيفية لأقسام الكلام , فهو لا يعوِّل كثيراً على القرائن اللفظيّة التي أحد مصاديقها العلاماتُ الإعرابية , فهما (القرائن اللفظية والمعنوية) يعملان معاً عنده في تحديد المعاني الوظيفية النحوية , فمفهوم الخلاف الذي هو قرينة معنوية في تصوره هو أكثر توفيقاً في تفسير الاسم المنصوب على الاختصاص من تقدير عامل محذوف , بمعنى أنَّ دلالة الاسم المنصوب تخالف الدلالة الإعرابية للاسم المرفوع , فالقرينة المعنوية الخلافيّة هي أحد مصاديق القيم الخلافية عند حسان . ويبرهن على رأيه هذا بالاتكاء على إجراء تقابلي بين تركيبين يَرِدُ في إحداهما الاسم مرفوعاً مرة وأخرى منصوباً , نحو : (نحنُ العربُ نكرم الضيفَ ونغيث الملهوف) فهي تقابل جملة (نحن العربَ نكرم الضيف ونغيث الملهوف) , ففي الجملة الأولى (العربُ) خبر وما بعدها جملة مستأنفة , وفي الجملة الثانية (العرب) مختصٌ وما بعده خبر , فإذا اتحد المعنى بين التركيبين لزم أنْ تكون الحركةُ واحدةً فيهما ولكن إرادة الاختلاف بينهما مثلت قرينةً معنويةً دالةً تضافرت مع اختلاف الحركة في التفريق بين التركيبين[٦٩] , ويؤكد حسان أنَّ قرينة المخالفة المعنوية يمكن أنْ تُسْتَخْدَمَ في عدد من الأبواب النحوية نحو تفسير تعدد حركة الفعل المضارع في : (لا تأكل السمك وتشرب اللبن) وحركة المستثنى المنقطع والاسم المنصوب بعد فعل التعجب وبعد الصفة المشبهة والمنصوبات التي يتغير معناها برفعها[٧٠] .

و يبدو أنَّه قد أفاد من عامل الخلاف المعنوي الذي قال به الكوفيون, فالاسم بعد واو المعية في(استوى الماءُ والخشبةَ) منصوبٌ ((على الخلاف وذلك لأنه إذا قيل " استوى الماءُ والخشبةَ" لا يحسن تكرير الفعل , فيقال : استوى الماء واستوت الخشبة ؛ لأنَّ الخشبة لم تكن معوجة فتستوي , فلما لم يحسن تكرير الفعل كما يحسن في " جاء زيدٌ وعمرو" فقد خالف الثاني الأول , فانتصب على الخلاف)) [٧١].

بيد أنَّ مفهوم التقابل النحوي يجري بين الوحدات المتعاقبة خطياً ضمن الوحدة الإسنادية الواحدة أي بين أجزاء الجملة الواحدة , فالقيم الخلافية لمكوناتها تنشأ من اختلاف عناصرها شكلاً , فالتقابل يكون بين المفعول معه والفاعل ضمن المثال الشهير(استوى الماءُ والخشبةَ) وهذا ما تنسجم معه فكرة العامل المعنوي لدى الكوفيين (الخلاف) , في حين قد جعل حسان في تفسيره لفكرة الاختصاص على أساس قرينة الاختلاف التقابلَ بين جملتين.

وقبل تمام حسَّان حاول المخزوميّ في تناوله للعامل النحوي عند الكوفيين وتوقفه عند عامل الخلاف المعنوي عندهم أنْ يؤصِّلَ لمفهوم الخلاف عند الخليل ١٧٥هـ وتلميذه سيبويه ١٨٠هـ ؛ مؤكداً سبقهما إليه متلمساً مجموعة من التفسيرات التي تمحورت على فكرة الخلاف ولا تقتصر على ما ذهب إليه الكوفيون من بعد , وهذه التفسيرات الإعرابية التي تعلل الخلافَ هي نفسها قد دعا اليها حسان مِنْ بعد من دون إشارة للمخزوميّ , فالمستثنى نصب لأنه مخرجٌ ما أدخل فيه غيره كما ذهب الخليل , وجملة من المنصوبات ذهب إلى تفسيرها سيبويه معتلاً بأنها نُصِبَتْ لأنها مخالفة للأول , كذلك الحال والتمييز والأسماء المنتصبة إنما نُصِبَتْ لأنها خرجت عن أن تكون صفةً أي أنْ توافق حركةَ المرفوعِ فوجب فتحُهَا بالنصب [٧٢] .

فثمة محاولة سابقة جهدت أنْ تردَّ جملةً من المنصوبات إلى فكرة الخلاف وتطوّح بتقدير عوامل مختلفة تمثلت بمحاولة المخزوميّ ربما أفاد منها تمام حسَّان .

ومما يؤخذ على تمام حسان أنه لم يهتد إلى تعليلات بنيوية عند النحاة العرب تفسر اختلاف الحركات الإعرابية من مبدأ الاختلاف , فالبحث يرى أنَّ علة الفرق ضمن تعليلات كثيرة تخصُّ هذا المفهوم من ضمنها الفرق بين الحركات الإعرابية , فالعلة الثانية علة فرق والعلل الأوائل حسبها أنْ تصف واقع الكلمات وما تكسع به من حركات , فقد أشار ابن يعيش إلى أثر علة الفرق في بيان معاني الإعراب المختلفة قائلاً: ((الفاعل رُفِعَ للفرق بينه وبين المفعول الذي لولا الإعراب لجاز أنْ يتوهم أنه فاعل وكان الغرض اختصاص كل واحد منهما بعلامة تميزه عن صاحبه وكان زمام هذا الأمر بيد الواضع)) [٧٣] .

ومن إشارات ابن يعيش ت ٦٤٣ هـ في هذا الصدد قوله: ((الفاعل يظهر برفعه فائدة دخول الإعراب الكلام من حيث كان

---

[٦٧] المصدر نفسه ٢٠٧

[٦٨] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها . تمام حسان ٢٠٥.

[٦٩] ينظر: المصدر نفسه ٢٠٠

[٧٠] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها . تمام حسان ٢٠١

[٧١] الانصاف في مسائل الخلاف . أبو البركات الأنباري المسألة ٣٠ ٣٥٨\٢. وينظر : شرح المفصل . ابن يعيش ٣٥٨\٢.

[٧٢] ينظر: مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو. مهدي المخزومي ٢١٣ فما بعدها من صفحات

[٧٣] شرح المفصل . ابن يعيش ١٤٥\١

تكلف زيادة الإعراب إنما احتمل للفرق بين المعاني التي لولاها وقع لبس فالرفع إنما هو للفرق بين الفاعل والمفعول اللذين يجوز أنْ يكون كل واحد منهما فاعلا ومفعولاً)) .[٧٤]

في غير موضع واحد توقف تمام حسان في كتابه (اللغة العربية معناها ومبناها) متلمساً مقتربات تحليلية في الفكر اللغوي العربي القديم تقترب من مفهوم القيمة الخلافية , ولم ينطلق بهذه المقتربات إلى اكتشاف تغلغل هذا المفهوم في التراث العربي , فتلك المقتربات نتف مقتضبة صدرت عن نفس استطرادي لدى حسان , إذ لم يعقد فصلاً أو مبحثاً يقارب فيه المدونة التراثية بمبادئ المنهج الوصفي وأدواته الإجرائية التحليلية , ومن جملة ما وقف عنده من مقتربات تراثية التقسيم الأصولي لدلالة الكلمة الذي تَضَمَّنّ مفهومَ الخالفةِ وهو نوع سلبيّ في التقسيم , وفي الموضع ذاته يوكد أنَّ مفهوم القيمة الخلافية التي تتكون منها الأنظمة اللغوية ـ يُذَكِّرُ بفكرة الخلاف التي قال بها الفراء ت ٢٠٧ هـ على حد تعبير حسان.[٧٥]

و يذكر حسان أن الجرجاني في دلائل الإعجاز يشير إلى (الفروق) بين المعنى والمعنى , فهي بنظره إشارة ذكية تقترب من القيمة الخلافية [٧٦] . وكان قد ورد من قبل عنده في كتابه (اللغة بين المعيارية والوصفية) هذا المصطلح (الفروق) , فقد نعت القيم الخلافية بـ (الفروق) .[٧٧]

وفي قراءته للأصول العربية اللغوية التراثية في كتابه (الأصول) لم ينطلق حسان نحو التفتيش عن مصاديق شكلية لتلك القيم الخلافية , فكتابه يخلو تماماً من أي محاولة من هذا النوع , ربما تحاشياً للإسقاط وتوخياً للموضوعية , وعلى الرغم من ذلك ترد عنده (القيم الخلافية) في بعض الموارد اليسيرة في لغة تقويمية شارحة , فهو يثمن جهد النحاة العرب في التصنيف لأقسام الكلام على ضوء الأبواب مرتكزين ـ على حد ما يصف ـ على العلاقات الخلافية التي تضطلع بوظيفة التمييز والتفريق بين صنف وآخر , وهذا من شأنه ـ فيما يرى حسان ـ أن يحكم تماسك النحو ويجعل منه علماً يتسم بالصناعة المضبوطة في ضوء ما يصطلح القدماء[٧٨].

والمقتفي أثر الفروق في المدونة التراثية يجد مصاديق كثيرة من العلل التي تطرد على هديها في تفسيرات النحويين و تخريجاتهم فالسيوطيّ ت ٩١١هـ ذكر أنَّ (الفرق) قد علل النحاة به أحكاماً كثيرة , منها رَفْعُ الفاعلِ ونَصْبُ المفعولِ به , وَ ضَمُّ تاءِ المتكلم , و فَتْحُ تاءِ المخاطبِ وكسرِ تاء المخاطبة للفرق بينهن , ولتنوينُ التمكنِ دخلَ للفرق بين ما ينصرف من الأسماء وما لا ينصرف , وتنوينُ التنكير يدخل للفرق بين الأسماء النكرة والمعرفة من المبنيات , وكنايةُ أعلام البهائم بدخول ال الفلان و الفلانة فرقاً عن أعلام الأناسي بدون ال , و فَتْحُ همزةِ الوصلِ في أداة التعريف لكثرة استعمالها فرقاً بينها وبين الهمزة الداخلة على الاسم والفعل المكسورة في الاسم المضمومة في الفعل , و حَذْفُ التاء من باب صَبُور وشَكُور فرقاً بين فعول بمعنى فاعل , و فعول بمعنى مفعول , نحو حلوبة وركوبة بمعنى محلوبة ومركوبة , ومن باب جريح وقتيل فرقاً بين فعيل بمعنى مفعول وبين فعيل بمعنى فاعل كعليم وسميع , وتَغَيُّرُ صيغة الفعل المبني للمجهول فرقاً بينه وبين الفعل المبني للمعلوم في مختلف تصاريف الأفعال وما يلحقها من زوائد فرقاً بين الأبنية[٧٩] . ويذكر ابن يعيش أن الاسمين ((قد يكونان مشتقين من شيء والمعنى فيهما واحد وبناؤهما مختلف فيختص أحد البناءين شيئاً دون شيء للفرق ألا ترى أنهم قالوا (عَدْل) لما يعادل من المتاع وعديل لما يعادل من الأناس والأصل واحد وهو ع د ل والمعنى واحد لكنهم خصوا كل بناء بمعنى لا يشاركه فيه الآخر للفرق)) [٨٠].

إنَّ كثيراً من التعليلات إذا نظرنا إليها من زاوية شكلية ترصد علاقةَ المعلل ببقية مكونات اللغة تغدو مقبولةً في ضوء المنهج الوصفي البنيوي انطلاقاً من مبدأ الاختلاف ورصد أنساق النظام . فليس صحيحاً ـ فيما يرى البحث ـ أنْ يعمم الوصفيون من الباحثين العرب حكمَهم بعدم وجاهة المنهج التعليلي الذي التزمه النحويون واللغويون العرب , فما يأباه المنهج الوصفي هي تلك التعليلات التي لا تكشف النقاب عن بنية النظام , فَرَصْدُ الأسبابِ التعاقبية وعللها المغيرة من أشكال اللغة في انحدارها التاريخي هو محل الاعتراض البنيوي , وهو الدافع إلى التمييز بين النظر التعاقبي والتزامني , فتلك التعليلات لا تُعْنَى بعمل النظام في لحظة راهنة , فالتعليلات التزامنية التي تبحث عن الفروق المسؤولة عن إنشاء النظام وعلاقاته المحبوكة هي من صميم النظر التزامني [٨١].

---

[٧٤] المصدر نفسه ١٤٢\١

[٧٥] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها. تمام حسان ٢٤

[٧٦] ينظر المصدر نفسه ١٨٧ .

[٧٧] ينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية . تمام حسان ١١٨.

[٧٨] ينظر: الأصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب . تمام حسان ٥٩.

[٧٩] ينظر: الأشباه والنظائر . السيوطي١\٣١٨-٣١٩

[٨٠] شرح ابن يعيش ٨٣\١

[٨١] والحقُ أنَّ ليس كل علل الفرق عند النحاة العرب يمكن عدها عللاً بنيوية شكلية تسلط الضوء على خصوصية العنصر واختلافه , فجملة كثيرة من علل النحاة المتعلقة بالفرق هي علل تعليمية , فهم يصدرون بذلك عن منهج تعليمي ميسر يسهلُ على المتعلم التفريقَ والتمييزَ بين مكونات التركيب والأبنية , فالمتعلم يسهل عليه إدراك الشي بإدراك نقيضه .

القيمة الخلافية في التحليل الصوتي

إنَّ القيم الخلافية التي أشار حسان إلى وجودها في الأصوات العربية هي التقابل بين المخرج والمخرج وبين الشدة والرخاوة والجهر والهمس والتفخيم والترقيق [٨٢] . وهو يجعلها في مرحلة لاحقة من التحليل الصوتي , فالمرحلة الأولى تتضمن الملاحظات المسجلة التي تثبت أنَّ اللغة المدروسة تشتمل على أصوات بعدد معين ولكل صوت صفة عضوية وسمعية , أما المرحلة الثانية فهي مرحلة التَّشكيلِ الصوتيِّ التي تتضمن تلك المقابلات أي القيم الخلافيّة [٨٣] , فقد تشترك عدة أصوات في مخرج واحد فتكون الصفةُ التي تفرق بين صوت وآخر قيمةً خلافيةً تحددُ لكلِ صوتٍ كيانه , فالباء والميم يشتركان في علاقة عضوية في المخرج الشفوي وصفة الجهر ويفترقان بالقيمة الخلافية من حيث الأنفية والشدة وعدمهما.[٨٤] فالقيمُ الخلافيّة ـ فيما يرى حسّان – تضطلع في أي نظام لغوي باختلاف الوظيفة التي تؤديها الوحدة في النظام , فالأصوات الصحاح والعلل منشأ التقابل بينها مَرَدَّهُ الاختلافُ الوظيفيُّ [٨٥] . وتضطلع القيم الخلافية أيضاً بإحداث تقابلات بين الصحاح والصحاح وبين العلل والعلل , فالجهر والهمس قيمتان خلافيتان تفرقان بين الصحيح والصحيح لا بين العلل ؛ لأنها مجهورةً كلها في العربية الفصحى [٨٦] .

لقد حَضَرَ مفهومُ التقابلِ في البعد الوصفيِّ التحليليّ للأصوات العربية في الدراسات العربية الصوتية بنحو ملحوظ أكثر من حضور مفهوم القيمة الخلافية نظرياً أو تحليلياً في بقية المستويات [٨٧], ومن الجدير بالذكر أنَّ مفهوم التقابل الفونيمي هو أبسط الوحدات في التحليل اللغوي , وعلى الرغم من أهميته في التحليل إلا أنَّ النتائج المترتبة على ضوئه لا تبتعد عما انتهت إليه الدراسات العربية التراثية في تحليل الأصوات والتمييز بينها استناداً للفرق بين الصفات والمخارج , هذا على صعيد الجانب التطبيقي الذي يروم وصفَ اللغةِ العربيةِ على هدى المنهج الوصفي , أما على صعيد الجانب النظري المبشر والممهِّدِ نظرياً للمنهج الوصفي فقد اهتمت الدراساتُ العربية بالتفريق بين اللغة والكلام والتمييز بين المستويات وتحديد وحدات التحليل اللغوي واعتماد المستوى المنطوق دون المستوى المكتوب ؛ من دون أن تولي هذه الدراسات عنايةً تُذْكَرُ لمفهوم القيمة الخلافية وأثرها في هذه المبادئ النظرية , وإنْ حضرت لا تقتصر إلا على تأصيل مبدأ التقابل في التحليل , ولا يمتد النظرُ إلى أثرها المعرفي (الابستمولوجي) في بناء النظرية البنيوية الوصفية , فالتفريق بين اللغة والكلام وعَدُّ اللغة شكلاً لا مادةً واختيارُ اللغة بوصفها نظاماً للبحث اللسانيّ يرتكز جله على مبدأ القيمة الخلافي , وهذا الأمر يشي بعدم الوعي لأهم المرتكزات المعرفية (الابستمولوجية) التي يستندُ عليها علمُ اللغةِ البنيويّ بل حتى بعض الدراسات الحديثة التي عكفت على الاهتمام بالجانب المعرفي للسانيات البنيوية لم تحفل بأثر القيمة الخلافي في النظر المعرفي.[٨٨]

إنَّ القيم الصوتيّة لا تقتصر على التقابل في الصفات , فهي إلى جنب ذلك تنشأ من موقع أو ترتيب الصوت بين الأصوات في بنية الكلمة , أي من توزيعها في المحور الأفقي داخل الكلمة , فما نعته حسَّان بالقيم الصوتية هو تقابل صوتي , وبنحو أدق هو تقابل بسمة تمايزية واحدة من سمات الفونيم .

القيمة الخلافيّة في التحليل الصرفيّ

وثمة توصيف غير دقيق لدى حسَّان في معرض حديثه عن أثر العلاقات والقيم الخلافيّة في النظام و هو في الوقت الذي يؤكد فيه أهميتها في النظام غير انه يقطع بأهمية القيم الخلافيّة على العلاقات الرابطة بين العناصر في النظام فقد نصَّ على ذلك مشيراً: ((القيم الخلافية وهي المقابلات أو نواحي الخلاف بين المعنى والمعنى أو بين المبنى والمبنى أهم بكثير جداً من العلاقات الرابطة لأنها أقدر من تلك العلاقات على تحقيق أمن اللبس وهو الغاية القصوى للاستعمال اللغوي , فإنه ليمكن الزعم أنَّ كل نظام لغوي ينبني أساساً على مجموعة من القيم الخلافية التي بدونها لا يكون اللبس مأموناً ولا الكلام مفهوماً))[٨٩] .

ومكمن عدم الدقة في قوله هذا أنه لا يمكن الفصل بين العلاقات والقيم الخلافيّة , و ((القيمة تصاغ باعتبارها جملة العلاقات بين العناصر التي تتجاوز العناصر ذاتها في باب المدلولات أو في باب الدالات أو العلامات))[٩٠] , فالقيم الخلافيّة هي مقياس إجرائي تُخْتَبَرُ فيه أهميةُ العناصرِ المشكلةِ للنظامِ في إطار علاقاتها مع بعضها الآخر , إلى جنب أنَّ مفهوم النظام

---

[٨٢] ينظر : اللغة العربية معناها ومبناها. تمام حسان . ٤٦

[٨٣] ينظر المصدر نفسه ٦٧

[٨٤] ينظر المصدر نفسه ٣٥

[٨٥] ينظر المصدر نفسه ٦٨

[٨٦] ينظر المصدر نفسه ٧١

[٨٧] ينظر مثلا: دراسة الصوت اللغوي . أحمد مختار عمر ٣٢٦-٣٢٧ . و ينظر: علم الأصوات . كمال بشر ٣٩٤ -٣٩٥

[٨٨] ينظر : الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية .البنيوية والتوليدية . محمد محمد العمري إذ لم يأبه بمفهوم القيمة بقدر ما أهتم بمفهوم البنية والنسق ممتداً بمنهج حفري(أركيولوجي) باحثاً عن الإطار النظري للعلوم المعرفية المجاورة للسانيات الذي استمد منها سوسير فكرة النظام .ينظر صفحة ٦٦ إلى نهاية القسم الأول من دراسته هذه التي خصصها – في قسمها الأول- للسانيات السوسيرية والبنيوية .

[٨٩] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها . تمام حسان ٣٤.

[٩٠] مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة . كاترين فوك و بيار لي قوفيك ٢٢

هو ليس حصيلة جمع عناصر مختلفة وضمها إلى بعضها الآخر بل هو محصلة علاقات بين العلامات والعناصر , والمأخذ الثاني هو تأكيده قدره هذه القيم على تحقيق أَمْنِ اللبسِ , وهذا الفهم لا يوافق الإطار النظريّ لسوسير الذي ينيط بالقيم الخلافيّة مسؤولية تكوين النظام انطلاقاً من مقولة أن ما في اللغة إلا الاختلاف بين عناصرها. إنَّ أَمْنَ اللبسِ هوَ إجراءٌ تحليلي عَمِدَ إليه النحاةُ من قبل لكن لإجراء اختباري بين تركيبين يتضح في أحدهما استناده على عنصر متغّيرٍ عن التركيب المقابل مما يدلل على أنَّ منطلقهم من وراء ذلك منطلق وظيفي لا يتجاوز أحادية الوحدة الإسنادية التركيبية التّي قد يوجد ما يشابهها في بعض التراكيب , ولا يتخطى عندهم ذلك الإجراء النظر إلى اللغة بوصفها نظاماً , وربما اهتمام حسان بجانب المعنى وافق منطلقَ النحاةِ العربِ فأفادَ منهم , فابتعد مفهوم القيم الخلافية عن أصله البنيوي السويسري في التحليل .

ويرى تمّام حسَّان أنَّ اللغةَ تُعَبِّرُ عن المعاني الصّرفيّة بوساطة المباني الصّرفية وهي بذلك تلجأ إلى أمن اللبس بين مبنى وآخر وسيلتها بذلك هو القيم الخلافيّة , فقد تكون هذه القيم تقابلاً بين الحركة والمدِّ نحو فَعَلَ وفاعل, أو تقابلاً بالتشديد نحو فَعَل وفعّل , أو تكون القيم مقابلة التجرد بالزيادة نحو فعل واستفعل . إنَّ اللجوء إلى أمن اللبس لا يحصل دائما فموارد اللبس محدود ة فيكون حضور القيم محدوداً ومحصوراً , فهو ينوه إلى ذلك قائلاً ((فإذا أحبت اللغة العربية التخالف فذلك لأنه يعين على أمن اللبس بواسطة ما يهيئه من المقابلات أو الفروق بين متخالفين أي بواسطة استخدام القيم الخلافية)) [٩١] . إنَّ مستهل عبارته (إذا أحبت اللغة العربية التخالف) يوحي بأنَّ اللغة قد لا تحب التخالف , أو لا يحصل ذلك دائماً فهي تجنح إليه وتحبه في مواضع , وعلى هدى اللسانيات البنيوية السوسيرية فإنَّ اللغة لا تتضمن سوى الاختلافات بل كينونة اللغة التي تقومُ عليها هي القيم التي هي حاضرةٌ أبداً في اللغة الأمر الذي يدلل عدم دقة ما ذهب إليه حسّان.

لقد جعل حسَّانِ القيمَ الخلافيّة مكوناً من مكونات النِّظامِ الصرفيِّ فهي الجزء ذو التسلسل الأخير , فقد قَدَّمَ أولاً المعاني الصرفيّة وثانياً الأبنية ومن ثم القيم الخلافيّة , وهذا الأمر يشي بعدم الوعي لآلية بناء النِّظام وعدم اكتناه أثر القيم الخلافية في ذلك البناء , فمهمة اللساني الوصفي أنْ ينطلق من وحدة تحليلية تجزيئية تنسجم مع النِّظام الذي تعمل على وصفه أي المستوى الصرفي , فالقيمة الخلافية ليست مفهوماً يعمل بمعية الوحدة أو شيئاً يضاف إليها ليمثلاً معاً بنيةَ النظامِ , بل القيمة من شأنها أنْ تختبر كفاءةَ الوحدةِ التحليليةِ التي تنشأ من التحليل , وتكشف مدى مطابقة هذه الوحدة لواقع اللغة الموصوف , وتُبَيِّنُ الأثرَ الوظيفيّ لها في النظام من خلال تقابلها مع نظائرها من وحدات المستوى الموصوفِ ضِمْنَ النِّظامِ اللغويّ الواحدِ , فالوحدةُ أولاً وعلاقاتُها مع بقية الوحدات ولا شيء سوى هذا المفهوم في الكشف عن النظام , وسبيلُ اللساني البنيوي هو تجزئة السلسلة الكلامية إلى وحدات تحليلية مرتكزاً بذلك على آليتي المطابقة أولاً أي مطابقة الوحدة لواقع اللغة , والآلية الثانية المقابلة التي تعزل الوحدةَ عن نظائرها الأخرى ضمن النظام الواحد وتُسَلِّطُ الضوءَ على فكرة الاختلاف , والآليتان تتمحوران ضمن إطارٍ واحدٍ هو مفهومُ القيمةِ الخلافيّةِ , هذا على الصعيد النظري الذي لم يُوَفِّقْ حسّان فيه باستحضار القيم الخلافية وإدراكِ أثرها الوظيفي . أما على صعيد الجانب الإجرائي الوصفي للبنية الصَّرفيّةِ العربية , فالوحدة التحليلية في النظام الصرفي هي المورفيم , وحسان يستعمل هذا المصطلح في حديثه عن النظام الصرفي ويرد عنده بما يصدق على مفهوم الأبنية الصرفية وصيغها الواردة في الموروث العربي التراثي , وفيما يتعلق بالتنظير الصرفي فتمام حسان يستحضر الأبنية الصرفية عند العرب ويعمل على جدولتها في بعدين عمودي ورأسي ليدلل على أنَّ تلك التقاطعات في العمودين هي المسؤولة عن انشاء تلك الوحدات , وهذا الصنيع لا يتوافق مع المنهج الوصفي الذي يحتم على الدراس الواصف أنْ يعمد هو إلى اكتشاف الوحدة الصرفية بنفسه .

فالوحدات الصرفية هي وحدات مكتشفة من الصرفيين العرب قبله , فهو قام بإدخالها في جدولة صورية فقط , مما يؤكد عدم إفادته من (مفهوم القيمة الخلافي) على العكس مما نوه به , فالعثور على وحدة تحليلية ليس أمراً يسيراً , فهو ينبثق من الملاحظة ومحاولة الوضع وإعادة النظر والتجريب ؛ وصولاً إلى وحدة تحليلية يتبناها اللساني الوصفي . وآلية القبول ترتكز على مبدأي المطابقة للغة الموصوفة , والتقابلِ بين الوحدات بما يحقق المغايرةَ . وهذان المبدآن يتبعان مفهوم القيمة الخلافية , فالبدء مما انتهى إليه الآخرون من الصرفيين العرب في تبني الوحدات الصرفية يعني أنَّ مفهوم القيمة الخلافية غائب أصلاً عنده في البعد التحليلي الإجرائي للنظام . نعم يجد الفاحص إشارات وردت عنده في التقابل بين بعض الأبنية الصرفية , ولكن تلك الإشارات مثلت مصداقاً يدلل على مفهوم التقابل لا مرتكزاً نظرياً يعول عليه في تبني وحدة وتقرير وحدة مغايرة لها , فالأبنية التي وردت في كتابه هي هي الأبنية التي انتهى إليها العرب من قبل . ومما تجدر الإشارة إليه أنه قدم المعاني ثم الأبنية الصرفية ,ومن بعدها قدم القيم بوصفها متطلبات النظام مما يشي بأنَّ ثمة فصلاً بين المعاني والشّكل , وهذا ما يأباه المنهج البنيوي الذي لا يبيح الفصل بينهما , فهما ملتحمان في الوحدة الواحدة كوجهي العملة النقدية التي لا يمكن فصلهما عن بعضهما وإلا فقدت العملة قيمتها وكينونتها . إنَّ هذا المفهوم لا يجهز على صنيع العرب ويقلل من كفاءة أنموذجهم في وصف أبنيتهم ؛ لكنه لا ينسجم مع المنطلقات البنيوية الوصفية الحديثة , والصرفيون العرب أنفسهم امتزج الحديث عندهم حول الأبنية بمعانيها , فالفصل بينهما فصل اعتباري لا تحليلي اجرائي . ثم انَّ فكرة الأبنية هي الأخرى لا تنسجم مع مفهوم المورفيم الذي يلتحم بالبناء المعجمي فالأبنية الصرفية المجردة عن دلالتها المعجمية التعيينية التي لجأ إليها العرب فيما مضى تنطلق من فكرة الأصول الاشتقاقية القائم عليها الجذر اللغوي الذي يولد الأبنية , وهذا الأمر ينسجم مع العربية ذات الاشتقاق الداخلي في الصيغ الصرفية , مما قد يبدو مسوغاً عند النحويين العرب , وحسان تبناه ولم ينوه

[٩١] ينظر المصدر السابق ٢٦٥.

بالاختلاف مع الإطار النظري اللغوي الحديث الذي يتقاطع مع الوحدات الصرفية (الأبنية) التي تبدأ منها , فاللغات الهندوأوربية هي لغات إلصاقية ومفرداتها الصرفية تختلف عن الأبنية العربية فقد يكون هذا مسوغاً للاختلاف.

القيم الخلافيّة في التحليل النحوي

وحينما حاول تمّام حسّان الكشف عن مكونات النظام النحوي فقد وقع في نفس المطب المنهجي الفادح الذي وقع فيه فيما يتعلق بمكونات النظام الصرفي , فالقيم الخلافية كانت شيئاً مضافاً إلى مكونات ومبان سابقة عليه , فهو يقع في مرحلة أخيرة , فالنظام النحوي لديه ينبني على أسس هي مجموعة من المعاني النحوية المتعلقة بمعاني الجمل والأساليب ؛ ومجموعة من معاني الأبواب النحوية المفردة كالفاعلية والمفعولية والإضافة ؛ ومجموعة من العلاقات التي تربط بين المعاني مثل الإسناد والتبعية والتخصيص التي يسميها بالقرائن المعنوية . ويتكون النظام النحوي أيضاً من قرائن لفظية تشمل الحركات والحروف الإعرابية والأبنية الصرفية وأخيراً وفي المرتبة الخامسة تأتي القيم الخلافية أو المقابلات بين أحد العناصر المتقدم ذكرها و بقية أفرادها.[٩٢] فثمة إكثار وتوسعة لأسس يمكن أنْ نعدها واحد ة ؛ فمعاني الأبواب النحوية لا يمكن فصلها عن القرائن المعنوية فالفاعلية والمفعولية لا تنفك عن باب الفاعل والمفعول به ؛ وكذلك التخصيص والصفة والخبر والاسناد , حتى القرائن اللفظية كالصيغ والعلامات الإعرابية فهي ملتحمة بالباب النحوي . ولا يخفى ما في مصطلح الباب النحوي من استحضار وتوظيفٍ لمنجز النّحاةِ العربِ في تقسيمهم للوحدة الاسنادية (الجملة) إلى وحدات نحوية منفردة نعتوها بالأبواب , فهو يريد بذلك الصنف النحوي الذي يشغل موقعاً في الجملة مع أصناف أخرى , ولا يخلو هذا الصنيع من مؤاخذة , نعم إنَّ مصطلح الباب عند النحاة العرب ينصرف إلى الوحدات التحليلية النحوية المكونة للتراكيب ولكنه في الوقت نفسه ينصرف أيضاً إلى قضايا دلالية عامة لا تقتصر على الوحدات الشكلية , فثمة بدائل تعبيرية يمكن أنْ تضطلع بالدلالية الاصطلاحية التي يريد تمام حسان أنْ يضطلع بها الباب , ولعل أكثرها انسجاما مع مبادئ المنهج الوصفي البنيوي هو العنصر النحوي(أو الصنف النحوي) لما لمفهوم العنصر النحوي من دلالة إيحائية تستحضر النظام الذي هو مجموعة من العناصر المرتبطة بعلاقة ما.

وانطلاقاً من مفهوم العنصر النحوي تنطلق المؤاخذات التي يسجلها البحث على تمام حسان , فقيمة العنصر تتأتى من خلال موقعه في ترتيب العناصر النحوية , فالسلسلة الخطية للكلام تتشكل بتتابع تظهر فيها العناصر النحوية بترتيب معين متباين , وهذا التباين ينشئ التقابل النحوي بين عنصر وآخر , فسوسير يرى القيم النحوية تنشأ من العلاقات التي ينعتها بـ (العلاقات السنتاكماتية) الأفقية , من هنا يتضح أنَّ تأصيل مفهوم الباب (العنصر النحوي) ينبغي أنْ ينطلق من مبدأي القيمة والتقابل اللذين يتضحان في علاقات النظام بأكملها التي تنقسم إلى وحدات نحوية بسيطة في الممارسة الاجرائية التحليلية الأمر الذي يريد أنْ يؤكده البحث أنه ليس صحيحاً أنْ ننتهي بالقيم والمقابلات الخلافية من مكونات النظام بل ينبغي أنْ نبدأ بها في الكشف عن العناصر النحوية (الأبواب) . والحق أنَّ سوسير لم ينشغل كثيراً بإيلاء الجانب النحوي أهمية في التحليل ورصد قيمه وآلية التمييز بين وحداته المكونة بل أرسى مفاهيم ابستمولوجية عامة تصدق على الأنظمة الفرعية (المستويات) المكونة لنظام اللغة , فقد أولى جل اهتمامه للكلمة في جانبها المعجمي الدلالي مبيناً عمل القيم اللغوية والتقابل في النظام , وفلسفته المنهجية التزامنية ؛ لبساطة الكلمة بوصفها وحدة تحليلية قياساً بالعنصر النحوي , فالأخير يجنح نحو التعقيد , فالقيم والتقابلات النحوية قد لا تسعف طبيعة المحاضرة الإحاطة بها فلا يمكن أنْ نعزل منجز سوسير عن ظرفية البث والتلقي , فقناة الإيصال مؤطرة بمحدودية الوقت والتلقي .

أما على صعيد الجانب التطبيقي الإجرائي في الكشف عن مكونات النظام النحوي للغة العربية فحسان لم ينطلق بآلية وصفية لمكونات النظام ورصد علاقاتها وقيمها الخلافية ثم تحليل وحداتها بالارتكاز على المقابلة والمطابقة القيمية , فقد استحضر المنجزَ الوصفي للتراث العربي حول النظام النحوي ؛ مقدماً إياه بلغة نظرية شارحة أراد لها أنْ تنسجمَ مع مقررات المنهج الوصفي الكاشفِ عن أنظمة اللغة الفرعية , فمن الطبيعي أنْ تغيبَ القيمُ الخلافيّةُ بوصفها مرتكزاً نظرياً تحليلياً يكشف علاقات النظام ويبرهن على مطابقة الوحدات لكيانات اللغة في نظامها العربيّ مثلما حصل مع النّظام الصرفيّ.

القيمة الخلافية في المعجم اللغوي

يرفض تمّام حسّان في كتابه (مناهج البحث في اللغة) كون القيم الخلافيّة يرتكز عليها البحثُ المعجميُّ قياساً ببقية الأنظمة اللغوية الأخرى التي ترتكز عليها في البحث اللغوي فـ ((الدراسات اللغوية كلها تركز اهتماماتها على المعنى , ويأخذ المعنى في الأصوات صورة القيم الخلافية بين الصوت والصوت , وفي التشكيل صورة هذه القيم بين الحرف والحرف , وبين المقطع والمقطع , وبين النبر والنبر*, وبين النغمة والنغمة , وأما في الصرف فيبدو في صورتها بين الصيغة والصيغة , وفي النحو بين الباب والباب . وأما في المعجم , فالأمر مختلف ,لأنَّ المعنى المعجمي قلما يأتي بيانه على نمط سلبي , وإنما يشرح دائما بطريقة إيجابية)) [٩٣].

---

[٩٢] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها . تمام حسان ١٧٨

- ومما يقتضي الإشارة إليه هو ان النبر في العربية ليس من شأنه أن يخلق قيماً خلافية , فالمعنى المعجمي لا يتغيّرُ وكذلك المعنى الوظيفي لا يتغيّرُ موازنة باللغات الهندوأوربية , فالضغط على مقطع معين في الكلمة يعطيها دلالة الاسم , والضغط على مقطع آخر في نفس الكلمة يعطيها دلالة الفعل , نعم نبر المقطع في العربية والتخالف فيه من

إنَّ ثمة معاييراً وأسساً ارتكز عليها النَّظَرُ المنهجيُّ عند تمّام حسّان في تمييز أنظمة الصوت والصرف والنحو , وعلى هدى هذه المعايير لم يعد تمام حسان المعجم نظاماً من أنظمة اللغة لعدم اتسامه بأحدها , وتلك المعايير لها دخلٌ مهمٌ بمفهوم القيمة الخلافية بنحو مباشر أو بنحو غير مباشر الأمر الذي يثبت أنَّ التوفيق قد جانب تمام حسان في مسألة عدم عده المعجم نظاماً من أنظمة اللغة ؛ على الرغم من وعيه النظري وجهده المنهجي في الكشف عن أنظمة الصوت والصرف والنحو . و يلوح للبحث وعلى هدى المعايير نفسها وبتوظيف مفهوم القيمة الخلافية أنَّ المعجم نظام من أنظمة اللغة مما يشي بعدم توفيق حسان في الافادة من معاييره التي اختطها في التحليل اللغوي , وأولى تلك المعايير هي العلاقات العضوية والقيم الخلافية بين المكونات فقد أشار قائلاً : ((حين نسمي أفكاراً مركبة نظاماً فلا بد أنْ تكون بين بعضها وبعض علاقات عضوية معينة وكذلك أوجه خلاف بين كل واحد منها وبين الأخرى بحيث تؤدي كل واحدة منهما في النظام وظيفة تختلف عما تؤديه الأخرى))[٩٤] . إن ما ينتهي إليه حسان تعويلاً على هذه المسلمة هو عدم وجود علاقات عضوية بين كلمات المعجم فقد يكون بين جملة من هذه الكلمات علاقة اشتقاقية لاشتراكهما في أصول المادة المعجمية ولكن العلاقة الاشتقاقية تختلف عن العلاقة العضوية فالعلاقة العضوية لكل وحدة من وحدات النظام تدخلها في علاقة خلافية مع بقية وحدات النظام [٩٥], فالاسم ـ كما يؤكد تمام حسان ـ يدخل في علاقة نحوية خلافية تميزه عن بقية أقسام الكلام , وكذلك الجمع والتذكير , فكل معنى من هذه المعاني يدخل في علاقة تصريفية تنشأ عنها قيمٌ خلافيةٌ تقابلَ المعانيَ الأخر في إطار النظام الصرفي العربي الواحد , فالمعجم ـ فيما يذهب اليه حسان ـ لا تدخل كلماته في إطار العلاقات العضوية فلا يُعَدُّ نظاماً [٩٦].

والذي يَعْجَبُ منه البحثُ أنَّ أصلَ فكرةِ القيمةِ الخلافيّةِ قد اكتسبت دعامةً نظريةً قوية من خلال مناقشة سوسير قضية مفرداتية معجمية تمحورت حول الترادف الذي لم يبرهن من خلالها على مفهوم القيمة حسب بل برهن على نسبية القيم اللغوية بين مجتمع وآخر ونسبية اللغات في تمثيلها للفكر . فكيف غاب هذا الإجراء النظري المهم عن كتاب (اللغة العربية معناها ومبناها) في الوقت الذي حضرت منطلقات بنيوية ووصفية لديه وبوعي متقدم ورائد على التلقيات العربية الأخرى التي اقتبست منه وافادت ! فأعمال حسان يمكن نعتها بأنها نصوص منهجية مؤسسة للإطار النظري للمنهج الوصفي في الدراسات العربية . وفيما يبدو للبحث أنّه كان معنياً بوضع آلية بنيوية تضبط توزيع المتن اللغوي والمفردات ضمن المعجم الصوري . وثمة فرق بين المعجم الذهني والمعجم الصوري فالأخير يخضع لكيفيات منهجية عدة في توزيع المادة وليس من نظام قسري يحتم على المادة المعجمية أنْ تتوزع في ضوئه . أما المعجم الذهني فيلتحم مع أنظمة اللغة الأخرى بنظام علائقي , وهذا النظام يمثل مرحلة مهمة لا يُعَدُّ إنشاءِ الكلامِ وبناءِ الجملِ سليماً من غيرها.

وثاني تلك المعايير هو صلاحيّة الّنظام للجدولة , فلكل معنى بعد رأسي وبعد أفقي والتقاء البعد الرأسي بالبعد الأفقي تتكون على إثره وحدة من وحدات النظام .[٩٧]

وهو يرى ((ان المعجم لا يمكن أنْ يوضع في صورة جدولة لأنه ... تنقصه العلاقات العضوية بين مكوناته ومن شروط إمكان أي جدول أنْ يوضع أنْ يكون بين مكوناته هذه العلاقات العضوية...وإذا كان المعجم غير صالح للجدولة فلا يمكن أنْ يكون نظاماً لغوياً))[٩٨] . ومن خلال استحضار المؤاخذة السابقة التي سجلها البحث من كون أنَّ أصل القيمة الخلافية انبثقت على يد سوسير من قضية مفرداتية معجمية ؛ يمكن التأكيد أنَّ القيم الخلافية حاضرة في المفردات في التصور اللساني البنيوي .

وقد أفادت اللسانيات البنيوية الدلالية من مفهوم التقابل فانبثق المنهجُ التحليلي التكويني للمفردات الذي ينطلق بتحليل المفردة إلى سمات معنوية عديدة قد تشترك مع مفردة أخرى, بيد أنهما يختلفان بسمة فارقة تشكل تقابلاً في المعنى , الأمر الذي يتيح إحلال أي من المفردتين المتقابلتين محل الأخرى في سياقها التركيبي [٩٩]. صحيح أنَّ الدراسات اللسانية البنيوية في أبعادها التطبيقية لم تضع معاجم صورية يتقمصُ توزيعُ المادةِ المعجمية فيه الإطار النظري للقيم الخلافية المشكلة لنظام المعاجم ؛ حتى على صعيد الجانب النظري لم تشغل اهتمامها بإرساء تفصيلات تكشف عن العلاقات العضوية وكيف تلتئم في نسق بنيوي واحد . وفي حقبة اللسانيات التوليدية تبلورت بنحو أكثر قضية المعجم الذهني بوصفه مكوناً من مكونات اللغة , ولقد عُنِيَتْ بمراحل توليد الجملة في الذهن , وكان المعجم الذهني مكوناً مهماً في إنشاء الجملة وتوليدها إلى جانب المكونات الصوتية والمورفولوجية والتركيبية [١٠٠].

النبر وعدمه يضفي عليها معان انفعالية عاطفية ولكن المعاني المعجمية والوظيفية النحوية في صورها البنيوية لا تتغير.

[٩٣] مناهج البحث في اللغة. تمام حسان ٢٣٢-٢٣٣ وينظر: اللغة بين المعيارية والوصفية . تمام حسان ١٢٠- ١٢١.

[٩٤] اللغة العربية معناها ومبناها . تمام حسان ٣١٢

[٩٥] ينظر المصدر نفسه ٣١٢

[٩٦] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها. تمام حسان ٣١٣

[٩٧] ينظر المصدر نفسه ٣١٢

[٩٨] المصدر نفسه ٣١٣

[٩٩] ينظر: مدخل إلى علم الدلالة الألسني . موريس أبو ناضر .٣٦ مجلة الفكر العربي المعاصر. العدد ١٩\١٨ سنة ١٩٨٢.

[١٠٠] ينظر: جوانب من نظرية النحو . نعوم جومسكي١١٠-١١١.

أما ثالث المعايير التي يرفض حسان في ضوئها كون المعجم نظاماً هو أنَّ النظام نظراً للطابع العضوي بين عناصره لا يتيح للغة أنْ تستعير من لغة أخرى أحد أصواتها أو صيغها الصرفية أو أي علاقة نحوية من خارجها , لينتهي حسان إلى أنَّ اللغة العربية قد اقترضت مفردات كثيرة من لغات شتى الأمر الذي يؤكد أنَّ المعجم لا يمكن أنْ يُسَمَ بالنظام [١٠١]. إنَّ اقتراض الألفاظ ينطلق من وجود فجوة معجمية داخل اللغة فتستعير ما من شأنه أنْ يردم تلك الفجوة فيتحول إلى جزء من النظام , ولا يمكن طرحه أو الاستعاضة عنه بوجود بديل تعبيري آخر , ولا يقتصر الأمر على الاستعارة والاقتراض بل إن اندثار كثيرٍ من ألفاظ اللغة أمرٌ يصبُّ إلى جنب الأمر الأول في حقيقة مفادهُا أنَّ المنهج الوصفي ينبغي أنْ تُشادَ ركائزُهُ على مبدأ التزامن , أي رصد عناصر النظام تبعاً لحالة ساكنة مفترضة مؤطرة بإطار زمان معيَّنٍ ومكان محددٍ , فالأثرُ الوظيفيُّ للقيم الخلافيّة في اللغة ونظامها إنما يتجلى في مبدأ التزامن , و لا يقتصر الأمرُ على اندثار المفردات في الحقب التعاقبية الزمنية بل إنَّ المفردات ودلالاتها هي أكثر جوانب اللغة عرضة للتغيير , فهل يمكن أنْ نقطع بعدم انتماء مفردات (دينار, استبرق ,سفرجل) إلى متن اللغة لأصولها التأريخية غير العربية؟ ولكن الأمر يوجه بأنَّ القيم الخلافية الدلالية المفرداتية هي أكثر القيم عرضة للتغير.

وبنحو عرضي يتوقف تمام حسان عند مسألة الترادف من خلال حديثه عن المتطلبات المنهجية في تقديم المادة المعجمية من بيان للشواهد وإيضاح نُطُقِ المفردات وهجائها ليقرر أنَّ شرح المعاني ينبغي أنْ يتحاشى إيضاحَ المعنى بالترادف , فالترادف عنده مشكوك في أمره , فالألفاظ المترادفة هي ألفاظ متقاربة في المعنى [١٠٢] , والأمر المهم الذي يريد البحث أن ينوه به هو أنَّ فكرة القيمة الخلافية التي من شأنها أنْ تلغي الترادف تبعاً للآلية التي أوضحها سوسير في محاضراته قد غابت لدى حسّان في هذا الموضع الأمر الذي يؤكد أنَّ التوظيفَ المنهجيّ لمفهوم القيمة الخلافية عند تمّام حسّان لم يكن توظيفاً دقيقاً , ولم يستحضر مبادئه الإشكالية وأبعاده الإجرائية في التطبيق بنحو سليم ؛ فهذه سمة الريادة , وإي محاولة ريادية تسلم من التعثر ؟

المصادر

١- اتجاهات البحث اللساني . ميلكا إفيتش . ترجمة سعد عبد العزيز مصلوح , وفاء كامل فايد .نشر المجلس الأعلى للثقافة . مصر . الطبعة الثانية ب ت ط .

٢- الإحكام في أصول الأحكام . سيف الدين على بن أبي على بن محمد الآمدي ت ٦٣١ هـ . تحقيق عبد الرزاق عفيفي . نشر المكتب الإسلامي . الرياض. الطبعة الثانية . ١٤٠٢هـ

٣- الأسس الإبستمولوجية للنظرية اللسانية .البنيوية والتوليدية . محمد محمد العمري . دار أسامة. عمان الأردن الطبعة الأولى ٢٠١٢.

٤- الأشباه والنظائر في النحو . جلال الدين السيوطي ت ٩١١هـ دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان .ب ت ط

٥- الأصول دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب . تمام حسان . عالم الكتب . القاهرة ٢٠٠٠.

٦- الألسنية العربية . (الألسنية ١) . ريمون طحان . دار الكتاب اللبناني . بيروت . لبنان . الطبعة الثانية ١٩٨١.

٧- الألسنية (علم اللغة الحديث) . قراءات تمهيدية . ميشال زكريا . المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر . بيروت لبنان الطبعة الثانية ١٩٨٥ .

٨- الألسنية . الفروع والمبادئ والمصطلحات , هيام كريدية . بيروت . لبنان الطبعة الثانية ٢٠١٢ .

٩- الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين . أبو البركات الانباري ت ٥٧٧هـ دار إحياء التراث العربي . مصر . الطبعة الرابعة.

١٠-البحث عن فردينان دو سوسير . ميشال أرّيفيه . ترجمة محمد خير محمود البقاعي . دار الكتاب الجديد المتحدة . ليبيا . الطبعة الأولى ٢٠٠٩.

١١-البحث النحوي عند الأصوليين . مصطفى جمال الدين . دار الرشيد منشورات وزارة الثقافة والإعلام . بغداد ١٩٨٠.

١٢-البنيوية في اللسانيات . الحلقة الأولى . محمد الحناش. دار الرشاد الحديثة . الدار البيضاء . ب ت ط .

١٣- جوانب من نظرية النحو .نعوم جومسكي .ترجمة مرتضى جواد باقر. منشورات جامعة البصرة .١٩٨٥.

١٤-دراسة الصوت اللغوي . أحمد مختار عمر .عالم الكتب . القاهرة ٢٠٠٤.

١٥-دور الكلمة في اللغة . ستيفن أولمان. ترجمة كمال بشر. دار غريب . القاهرة. الطبعة الثانية عشرة . ب ت ط .

١٦-سوسير والألسنية . محمد الشاوش. ضمن كتاب: أهم المدارس الألسنية .عبد القادر المهيري وآخرون. منشورات المعهد القومي لعلوم التربية . تونس . الطبعة الثانية. ١٩٩٠.

١٧-شرح المفصل . موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش النحوي ت ٦٤٣هـ تحقيق أحمد السيد سيد أحمد . المكتبة التوفيقية . القاهرة مصر. ب ت ط .

١٨-العربية وعلم اللغة البنيوي. دراسة في الفكر اللغوي العربي الحديث . حلمي خليل .دار المعرفة الجامعية . الاسكندرية ١٩٨٨.

[١٠١] ينظر: اللغة العربية معناها ومبناها . تمام حسان ٣١٤

[١٠٢] ينظر المصدر نفسه ٣٢٩

١٩- علم الأصوات . كمال بشر . دار غريب . القاهرة ٢٠٠٠.
٢٠- علم الأصوات العام . أصوات اللغة العربية. بسَّام بركة . مركز الانماء القومي . بيروت . لبنان ب ت ط.
٢١- علم الدلالة . ف . بالمر . ترجمة مجيد عبد الحليم الماشطة . منشورات جامعة الموصل. العراق ١٩٨٥.
٢٢- علم اللغة العام . فردينان دي سوسير . ترجمة يوئيل يوسف عزيز . دار الشؤون الثقافية .بغداد ١٩٨٥.
٢٣- فرديناند دي سوسير (أصول اللسانيات الحديثة وعلم العلامات) . جوناثان كلر . ترجمة عز الدين إسماعيل . المكتبة الأكاديمية . القاهرة .الطبعة الأولى ٢٠٠٠.
٢٤- الفروق اللغوية . أبو هلال العسكري تبعد ٣٩٥هـ . تحقيق أبي عماد زكي البارون . المكتبة التوفيقية . مصر. ب ت ط .
٢٥- قاموس اللسانيات . عبد السلام المسديّ. الدار العربية للكتاب ١٩٨٤.
٢٦- اللسانيات اتجاهاتها وقضاياها الراهنة. نعمان بوقرة . عالم الكتب الحديث عمان الطبعة الأولى ٢٠٠٩.
٢٧- اللسانيات في الثقافة العربية المعاصرة .دراسة تحليلية نقدية في قضايا التلقي وإشكالاته . حافظ إسماعيلي علوي. دار الكتاب الجديد المتحدة . بيروت . ليبيا. الطبعة الأولى ٢٠٠٩.
٢٨- اللسانيات والدلالة . منذر العياشي . مركز الإنماء الحضاري. الطبعة الثانية ٢٠٠٧.
٢٩- اللغة بين المعيارية والوصفية . تمام حسان . عالم الكتب . الطبعة الرابعة القاهرة ٢٠٠٠.
٣٠- اللغة العربية معناها ومبناها . تمام حسان . الهيئة العربية للكتاب ١٩٧٣
٣١- اللغة والمعنى ومعنى الكلمة : علم الدلالة آ. كروز . ضمن الموسوعة اللغوية . الجزء الأول تحرير ن . ي . كولنج . ترجمة محي الدين حميدي , وعبد الله الحميدان . نشر جامعة الملك سعود . الرياض . السعودية ١٤٢١هـ .
٣٢- مبادئ في قضايا اللسانيات المعاصرة . كاترين فوك و بيار لي قوفيك . ترجمة الدكتور منصف عاشور ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر ١٩٨٤.
٣٣- محاضرات في الألسنية العامة . فردينان ده سوسير . ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر . دار نعمان للثقافة ١٩٨٤.
٣٤- محاضرات في علم اللسان العام . فرديناند دي سوسير. ترجمة عبد القادر قنيني. أفريقيا الشرق المغرب٢٠٠٨.
٣٥- محاضرات في المدارس اللسانية المعاصرة . شفيقة العلوي .أبحاث للترجمة والنشر .بيروت ـ لبنان الطبعة الأولى ٢٠٠٤.
٣٦- مدخل إلى علم الدلالة الألسني . موريس أبو ناضر . مجلة الفكر العربي المعاصر. مركز الإنماء القومي .بيروت لبنان العدد ١٨\١٩ سنة ١٩٨٢.
٣٧- المدخل إلى علم اللغة . كارل ديتر بونتج . ترجمة سعيد حسن بحيري . مؤسسة المختار للنشر والتوزيع . القاهرة . الطبعة الثانية ٢٠١٠.
٣٨- مدخل إلى علم اللغة . محمد حسن عبد العزيز. دار النمر للطباعة .القاهرة ١٩٩١.
٣٩- مدخل للسانيات سوسير . حنون مبارك . دار توبقال للنشر .الدار البيضاء .الطبعة الأولى ١٩٨٧.
٤٠- مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو. مهدي المخزومي . دار الرائد العربي . بيروت لبنان الطبعة الثالثة ١٩٨٦.
٤١- المضمر . كاترين كيربرات . أوريكيوني . ترجمة ريتا خاطر. المنظمة العربية للترجمة . بيروت . الطبعة الأولى ٢٠٠٨.
٤٢- معجم أعلام الألسنية (في الغرب) . هيام كريدية . بيروت . لبنان الطبعة الأولى ٢٠١١.
٤٣- معجم علم اللغة النظري . محمد على الخولي . مكتبة لبنان ناشرون . بيروت . لبنان ٢٠٠٩.
٤٤- معجم مصطلحات علم اللغة الحديث . محمد حسن باكلا . وآخرون . مكتبة لبنان بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٣.
٤٥- مناهج البحث في اللغة . تمام حسان. دار الثقافة الدار البيضاء. الطبعة الثانية ١٩٧٤.
٤٦- مناهج الدرس النحوي في العالم العربي . عطا محمد موسى . دار الإسراء . الاردن . الطبعة الأولى ٢٠٠٢.
٤٧- المنوال النحوي العربي. قراءة لسانية جديدة . عز الدين مجدوب . دار محمد علي الحامي . تونس . الطبعة الأولى ١٩٩٨.
٤٨- المورد الحديث . منير البعلبكي. رمزي منير البعلبكي. دار العلم للملايين . بيروت .لبنان . الطبعة الأولى ٢٠٠٨.
٤٩- النظريات اللسانية الكبرى من النحو المقارن إلى الذرائعية . ماري آن بافو . جورج إلياسرفاني . ترجمة محمد الراضي . المنظمة العربية للترجمة. بيروت. الطبعة الأولى ٢٠١٢.
٥٠- النظرية الألسنية عند رومان جاكوبسن. فاطمة الطبال بركة . المؤسسة الجامعية للنشر . بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٣.